وسائل النصر وأسبابه
في هدى القرآن الكريم
الحلقة الثانية(الإعداد والتحضير المعنوى)

أ.د. محمد إبراهيم شريف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

وسائل النصر وأسبابه
في هدى القرآن الكريم

الحلقة الثانية (الإعداد والتحضير المعنوى)

تقديم عام

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ولا عـــدوان إلا علـــى الظالمين ، والصلاة والسلام على من اصطفاه ربه رحمة للعاملين ، ﷺ وعلـى آله وصحبه الذين اهتدوا بهداه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فبـددوا ظـلام العالم وحملوا هديه ورحمته للناس جميعا فنصرهم الله نصرا مبينا ، وبعد ،

لقد عرفنا - من قبل - في الحلقة الأولى من الإعداد والتحضير لوســائل النصر وأسبابه - أهم هذه الوسائل المادية التى قوامها إعداد القوة من الرجـــال والعتاد والأموال والعمل والتوحد والتنظيم وتفعيل طاقات الأمـــة وإمكاناتـها ، ونضيف في هذه الحلقة الثانية أهم وسائل النصر المعنوية في طريـــق الإعـداد والتحضير لملاقاة الأعداء وتحقيق النصر الموعـــود ، لأن الأمـم لا تحـارب بالسلاح والمال فحسب ، ولا تحارب بالإعلام أو الأمانى والأحلام ، إنما هـــى تحارب أولا بالروح المعنوية ، وتحارب بتلك الشوكة التى يشاكها قلبها فتـؤرق نومها وتكدر صفوها ، وتحارب بتلك الغيرة البشرية التى تظلم عليـــها الحيـاة وتضيق عليها الأرض بما رحبت ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن هذه العناصر المعنوية مهمة ، وأساس عظيم في المعـــارك ، وركـن شديد تأوى إليه الأمم لإزاحة ما تراكم عليها من غبار التخلف والاســتضعاف ، فتأتى بالعجائب وتصنع مستقبلها بالإنجازات والانتصارات .

ولقد أصيب العالم الإسلامى بنقصان في هذه العناصر الروحية والمعنوية، وافتقر كثيرا إلى هذه الأغذية والأمداد القلبية والعصبية منذ زمن طويل ، حيـث ظلمه رعاته فأصبح مشلول القوى ، عاطل الإرادة والتفكـــير ، وفـاقد الهمـة والطموح ، لا تثيره محنة ولا تجرحه إهانة ولا يستفزه عدوان[1] .

فليكن توجه المسلمين وطلبهم لنصرة الله مركزا على هذه الناحية ، ولتكـن هذه الوسائل المعنوية في مقدمات الأمور التى ينبغى لهم تحصيلها إلـــى جـوار الوسائل المادية ، لأن هذه وحدها ليست الفاصلة في المعارك ، بل الأعصـــاب والإرادة ، والقوة المعنوية لها الدور الأكبر في ذلـــك ، ولا يوجـد مـا يثبـت الأعصاب ويقوى الإرادة كالإيمان الذى يربط القلـــوب بـــالله ، ويصـل قـوة المجاهدين بالقوة الكبرى التى لا تغلب ، والتى تمد الأرواح بالينبوع الدافق مـن الهمة والصبر والصدق والإخلاص والثبات حتى النصر والفلاح .

إن المسلمين أحوج أهل الأرض اليوم إلى أن يتخلصوا مـن أمراضـهم ، ويتخلوا عن عيوبهم قبل تسلحهم بوسائل نصرهم ، وتحليهم بما يـأخذ بأيديـهم إليه ، ولا مناص لهم عن ذلك وبين أيديهم هدى القرآن الكريم يبصرهـم بذلـك كله ، ويبين لهم - من وقائع القرون وتجارب الأمم السابقة وما جـرى لـها - المنهج الناجع والصراط المستقيم ، وتجاهل هذه الحقائق والتغافل عنـها ربمـا كلفهم اجتياح بقيتهم واستئصال شأفتهم ، وإذا ظلت بضاعة المســلمين الوهـن والخلط والنكوص والإذعان والرضا بالدون ، وبضاعة أعدائهم الجرأة والأمـل والحكمة والإصرار والإيمان ، فأى الفريقين يحظى بالنصر ؟

إن القرآن الكريم عاب اليهود قديما بأمور معينة ، وصف تخوفـهم مـن الناس وحذرهم من الخلق - مع جرأتهم على الله بالمعصية - فقال : "لأنتم أشـد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون" (الحشر ١٣) ، ووصف تقطع أواصرهم بالهوى واختلاف قلوبهم بالضغائن فقال : "بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون" (الحشر ١٤) ، ووصف طمعهم في أموال الناس وحرصهم على أكلها سحتا ، فلا يردونها إليهم إلا عن إلحاح فقال : "ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما" (آل عمران ٧٥) ، ووصف غرورهم بالانتساب إلى الله وأمل عامتهم في نيل النعيم المقيم دون عمل خطير وبذل جسيم فقال : "وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه" (المائدة ١٨) ، وقال : "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون" (البقرة ٧٨) ، ووصف تحاسدهم العلماء وغمطهم لصاحب الكفاية وتحقيرهم لما آتاه الله فقال : "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق" (البقرة ١٠٩) ، ووصف تحجر طبائعهم ونضوب الرحمة من قلوبهم ، ولعبهم بالنصوص التى نزلت لهدايتهم فقال : "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم " (المائدة ١٣) ، وغير ذلك كثير من الرذائل التى أستقطتهم .

فهل ترى لأى شئ ينبئنا الله من أخبار هؤلاء ؟ ألا يحذرنا الله من أن يكون لهذه الأوصاف نظائر بيننا ؟ ، نظائر !؟ ، كلا ، إنها هى بعينها ، فر اليهود الأخلاف منها وتهاوينا نحن فيها ، فإذا التقينا بهم في صدام عنيف ، فكيف يديل الله لنا منهم[٢] ؟ ، وهل ينتظر المسلمون طويلا حتى يأتيهم نصر الله عفوا بلا استحقاق أو هدية باردة بلا مقابل ، أم يفيدوا من هدى القرآن الكريم ، ويعيدوا حساباتهم ويغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم ؟ ، وإلا فالأمر كما قال تعالى : "وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" (محمد ٣٨) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا : الإيمان الحق :

ويجئ على رأس هذه العوامل المعنوية في تحقيق النصر وبلوغ الأمل إيمان طلاب النصر بالله وتسليمهم الأمر كله إليه ، واعتمادهم وتوكلهم عليه ، وثقتهم المطلقة في وعده إياهم بنصره ، إن الطاقة الروحية في الإنسان المنبعثة من هذا الإيمان طاقة ثمينة وكبيرة الأثر في الحياة البشرية برمتها ، وحين توجه إليها العناية لا يقل أثرها عن العوامل الأخرى المادية جميعها ، ويجد المسلمون مصداق هذه الحقيقة في تاريخهم مكررا شهيرا ، فقد وقف أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وحده مصرا على قتال المرتدين ، والمسلمون جميعا لا يؤيدونه في موقفه ، فعلى أية قوة كان يعتمد أبو بكر ﷺ ؟ ، القوة المادية !؟ ، القوة البشرية !؟ ، القوة السياسية وعلى رأسها وزيره الأول عمر ابن الخطاب ﷺ !؟ كلا ، فكل ذلك كان يخذله عن القتال ، ولكن القوة الروحية العجيبة التى وصلته بخالقه فاستمد منه العزم والعون هى وحدها التى حولت المتخاذلين إلى متحمسين وحولت قوة المشاعر إلى قوة مادية وسياسية لا مثيل لها في التاريخ (٣) .

والإيمان وهو رأس هذه الطاقات الروحية والمعنوية لا سبيل إلى تحقيق النصر والعزة - بله الإسلام الحق - إلا به ، ولن يصلح آخر هذا الدين أو الأمة إلا بما صلح به أولهما ، والمسلمون اليوم يواجهون ما واجهه المسلمون الأوائل وهم - يومئذ - حفنة قليلة ، ومع ذلك فقد تغلبت هذه الحفنة القليلة - بما آمنت به - على أعظم قوتين في زمانهم بما كان لهما من العتاد والأموال وفنون الحرب والسياسة أضعاف ما للمسلمين ، وقضت عليهما تماما وورثت ملكهما ، فكيف حدث ذلك ؟

إنه الإيمان الذى كان يدفع الرجل من أولئك أن يقول : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلنى ؟ ، ثم يندفع إلى القتال كأنه مقبل على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عرس ، أو يقول : "هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين" (التوبة ٥٢) ؟ ، الشهادة أو النصر ؟ ، ثم يلقى بنفسه في المعركة ليلقى إحديهما (٤) .

وفي تاريخ المسلمين القريب رأينا كيف انهزمت الفئة الكثيرة بافتقادها الإيمان الحق ، وإيثارها رفع راية العصيان لله ، وإقامة ليلها عشية الهزيمة في ثمل وسكر ، وشعارها الزائف "بر - بحر - جو" حتى صبحهم عدوهم بالهزيمة النكراء ، على حين استطاع نفر قليل من المؤمنين حقا وهم صائمون لله ، وشعارهم الصادق "الله أكبر" أن يأسروا لواء مدرعا بكامله ، وعلى رأسه قائده المذهول من هول ما يرى ، بل لقد استطاع واحد من المؤمنين بسلاحه الخفيف أن يعطب عشرات الدبابات أو يدمرها .

ترى هل كان يتحصن هؤلاء بغير القوة العليا التى أمدهم الله بها لثقتهم في وعد الله ، وإيمانهم الحق والأكيد بنصر الله لهم ؟

لقد وعى هؤلاء وأولئك المؤمنون بالله الموقنون بلقائه ما قصه عليهم كتاب ربهم من تجارب القرون الغابرة فيما قاله إخوان لهم : "قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" (البقرة ٢٤٩) .

وهكذا نرى أن انتصار أعداء الإسلام لا يكون على مسلمين متمسكين بدينهم ، وإنما يكون على نماذج بشرية لا تحمل من الإسلام إلا اسمه ورسمه ، ولا ولاء عندها لحقيقته وجوهره ، فافتقدت بذلك نصرة الله لها ولم تكن جديرة به ولا متحققة بصفات أصحابه من الإيمان الحق بالله ونصرتهم له الواردة في الآية الكريمة "يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد ٧) ، وصدق الله العظيم "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور" (الحج ٣٨) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولذلك يشيد القرآن الكريم بهذه الطاقة الروحية الفاعلة التي ينبغي أن يرعاها ويعتني بها طلاب النصر والحق ، وألا يضيعوا على أنفسهم الإفادة من ثمارها ونتائجها ، وإن كانوا في الوقت ذاته لا ينفضون أيديهم من العمل والوسائل المادية في حدود طاقاتهم الواقعية انتظارا لمعجزات الطاقة الروحية ، وإنما يكون شعارهم "أن الله يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن" [٥] ، أو كما قال القائل :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا إن الحياة عقيدة وجهاد

نعم ، إن روح اللهو والعبث لا تغلب روح الجد والكفاح ، كما أن فاقد الإيمان لا يقاوم من يتحركون بحماس ويقين راسخ[٦] ، إن الاعتقاد الديني يشد زناد النشاط الإنساني شدا هائلا ، ومن ثم يخرج العمل وكأنه قديفة لا يقفها دون مداها شئ .

ومن المؤسف حقا أن يغفل المسلمون - أو يتغافلوا - عن هذه الحقيقة ، وقد وعاها أعداؤهم الذين عرفوا أن المعارك لا يربحها إلا طلاب التضحية من أصحاب العقائد ، ولا يربحها عباد الشهوات من أبناء الدنيا ، فحاولوا - جهودهم - الحيلولة بين المسلمين ودينهم الحق ، وصرفهم عن مقتضيات إيمانهم .

لقد عرفنا تاريخ البشرية أن العرب - مثلا - لم يلم شملهم إلا الدين ، ولم يسحق خصوماتهم إلا الدين ، ولم يوحد كلمتهم إلا الدين ، كذلك كانوا قديما ، وكذلك نجدهم في هذا العصر ؛ لأن النفسية العربية لا يدخلها ويتمكن من الدوران فيها إلا مفتاح الدين ، ولقد انهزم العرب - في أيامهم الأخيرة - وبين أيديهم من أسباب الغلب والنصر ما لو ساانده الإيمان الصاحي والحماس الصادق لردعوا اليهود ومن وراءهم ، لكن العرب هزمتهم أزمة الإيمان في قلوبهم ، والقحط الرهيب في قيم الإيمان وأخلاق الإسلام ، لقد فتكت بهم فوضاهم الداخلية ، وتحللهم من تعاليم دينهم قبل أن تفتك بهم أسلحة الأعداء ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأجيال النصر لا يصنعها قوم انحلوا عن دينهم وتنكروا لتاريخهم ، إنما يصنعها المؤمنون المتطهرون والعارفون حق ربهم عليهم .

وإذا كان الدين سلاحا روحيا وماديا في الجبهة التي يقابلها العرب ، فكيف يطلب منهم أن يتجردوا عن الدين في هذا اللقاء ؟ ، هل يتعلق كل ذى دين بدينه ويتصرف بمنطقه ، على حين يطلب من المسلمين وحدهم أن يدعوا دينهم ؟ (٧) .

إن الإسلام آخذ أهل الكتاب الأولين بأنهم فرطوا فيما لديهم من نصوص ، لا يبالون أن يواقعوا الحرام في مأكلهم ومنكحهم ، ولا يصدون نوازع الهوى يوم تغريهم بعدوان أو اختلاس "وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون" (المائدة ٦٢-٦٣) ، فالرعية مؤاخذة بما اجترحت ، والأحبار والرهبان مؤاخذون بما سكتوا ، وإن لم يتدنوا إلى قول إثم أو أكل سحت ، ولا تصح نسبة هؤلاء إلى كتبهم ، ولا دياناتهم إلى السماء إلا بإقامة أحكامها في واقع الحياة ، وإلا فالأمر كله لغو وادعاء ، وذاك معنى قوله تعالى : "قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم" (المائدة ٦٨) .

أفترى تلك المؤاخذة وذلك الإنذار موجه إلى هؤلاء وحدهم ؟ ، أم أنه موجه إلينا نحن المسلمين كذلك ، فلسنا على شئ حتى نقيم ما أنزل إلينا من ربنا ؟ (٨) .

إن رسالة الأمة العظمى الدعوة إلى الله والتبليغ عن الرسول ﷺ ما يؤمنون به ويعتقدونه ، وحمل رسالة الهداية والرحمة إلى العالمين ، فكيف بهذه الأمة - أو طائفة منها - إذا تخلت عن هذه الرسالة ، أو أخذتها بضعف واسترخاء ؟ ، أو نفذت ما استهوت نفوسها وأهملت ماعداه ؟ ، أو خشوا فيها الناس ولم يخشوا الله ؟ ! ، بل كيف بهذه الأمة إذا تنادى فيها ذوو الأصوات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالية بتنحية الدين وإقصاء تعاليمه عن الحياة ؟ ، إن عقبى ذلك ما تعيشه الأمة اليوم من ذلة واستخذاء ، وإذا بقيت الروح الدينية على ذلك فلن تكسب الأمة معركة أبدا ، بل ستخسر وجودها كله .

إن اليهود - مثلا - يقاتلون بدافع من عقيدة ، ويعملون لتحقيق رسالة دينية ومدنية معا ، بينما يواجههم العرب - مثلا - بسياسة قائمة على إبعاد الدين عن آفاق الحياة ، ويوم يلتقى ملتهبو المشاعر بعقيدة ما مع من لم تستتر أفئدتهم بحقيقة دينية فماذا تكون النتيجة ؟ ، إنها الهزائم المرة التى ذقناها طالما غيبنا تعاليم ديننا إن في حربنا أو سلمنا(٩) ، وإلا فكم آية قرآنية تغرى بالاستشهاد ، أو حكمة نبوية توحى بالثبات والتحمل يعيها محاربونا أو يرددها جنودنا في ساعة الهول والنزال ؟

إن المؤمن يؤرقه طلب النصر ، ويفتق له إيمانه وجوه الحيل والاختراع ، وإقصاء الدين والإيمان - في جبهتنا - هلاك إلى الأبد في زمن يوصف دفاعنا عن ديننا وأرضنا ومقدساتنا بأنه حرب دينية ورجعية ، بل إرهاب دموى ينفى الآخر ويلغى اعتباره ، ويسكت عن هجوم أعداء الأمة عليها ووجههم الدينى مصدر فخر وزهو لديهم ، ويوصف عدوانهم بأنه دفاع عن أنفسهم ووجودهم ؟ ، أم أن القضاء على الإسلام وأهله هدف مشروع ، وصياح أهله وهم يدفعون عنه وعن أنفسهم عمل مستهجن وفعل قبيح ؟

إن العمل بالإسلام ليس كفالة لآخرتنا فقط كما يظن ، بل هو ضمانة حياتنا الآن ، وإنها لجريمة كبرى أن نجهل رسالتنا التى اصطفانا الله لها - على نحو ما جاء من المفاخر بعلمانية بلده - فنفقد مكانتنا الأدبية والمادية ، ونخسر الأولى والآخرة جميعا (١٠) .

وأول حلقة في سلسلة هذه الرسالة هى إقامة الدين في نفوسنا ، وترجمة الإيمان بالله واقعا حيا في حياتنا بعد أن أسأنا فهم الدين ، وشغلنا بشكله عن جوهره فاحتفلنا بأعياده ومواسمه ، وتمردنا على أحكامه وتعاليمه كمن "اتخذوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دينهم لهوا ولعبا" (الأعراف ٥١) ، أو "الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها" (الجمعة ٥) [١١] .

وعلى ذلك فالإيمان الحق ليس كلمة تقال أو شهادة تردد دون عمل يؤيدها وتضحية تصدقها ، كما جاء في الأثر "ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل" [١٢] ، فإذا آمن أمثال هؤلاء بالله حقا ، وتمسكوا بدينه صدقا حقق الله لهم النصر المبين ، فإن هذا الإيمان الحق[١٣] والتمسك الصادق بالدين يمنح صاحبه العزم الصادق والقوة الوافرة والثقة المطلقة في وعد الله بالنصر ، فلا يهاب عدوه أو يعتريه فتور ؛ لأنه يستمد العون والقوة من صاحب الحول والطول وواهب النصر ذى القوة المتين "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم" (آل عمران ١٢٦) .

ولا أدل على أن الإيمان الحق من أهم أسباب النصر ، وأنه لا يستحيل شئ مع عون الله من أن الله قبل أن يأذن للمؤمنين في القتال وعدهم وعدا مؤكدا بالدفاع عنهم ورد كيد أعدائهم وشرورهم ، وذكر لهم سبب ذلك من بغضه لهؤلاء الأعداء الذين يخونون أمانة الله ويكفرون نعمه ، ويبغون الفساد في الأرض بظلمهم للناس وصدهم عن سبيل الله ، ومن ثم كان قتال هؤلاء ورد عدوانهم وظلمهم ، والوعد من الله بالنصرة عليهم ، قال تعالى : "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" (الحج ٣٨-٣٩) [١٤] .

إن مفتاح هذه الأمة ومفجر طاقاتها هو الإيمان الذى جعلها خير أمة ، وحقق لها النصر - مع قلة عددها وضعف عدتها - على أعظم قوى الأرض ، وبه انتصرت على التتار والصليبيين ، وبه تستطيع الانتصار على ورثة هؤلاء وأولئك .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واليوم وقد استغل اليهود طاقاتهم الروحية ودوافعهم الدينية ، فأيقظوا أمتهم من سبات ، وجمعوا بها طوائفهم من شتات حتى واجهونا ومعهم التوراة وتعاليم التلمود ، وقال زعماؤهم : هكذا علمنا أنبياؤنا - هل يستنكف المسلمون - وهم أصحاب أصفى عقيدة وأكمل رسالة ، ولديهم الكتاب الإلهى المحفوظ - اصطحاب قرآنهم ، واستهداء سنة نبيهم وعدم اغترارهم بالقادة الملهمين والزعماء المعصومين ؟ ! ، ولكنهم في غمرة ساهون ، وعن مصادر قوتهم غافلون ، ومرجع ذلك إلى خراب الباطن من قوة الإيمان ، والذى سماه الرسول ﷺ بالوهن في الحديث المشهور[١٥] ، وفسره بأنه حب الدنيا وكراهية الموت .

ألا فلينظر المسلمون ويعتبروا من التاريخ البعيد والقريب قبل أن تجرى عليهم سنة الله وكلمة التاريخ ، والسنة ماضية فيما يورثه الإيمان وما يورثه افتقاده ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وقد ظل المؤمنون - بفضل هذا الإيمان - ينصرهم الله بالرعب الذى يلقيه في قلوب أعدائهم ، وقبل أن يتحركوا من بلادهم حيث تسبقهم شهرتهم بالعدل والإنصاف ، وحبهم للحق الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وانكسرت له أصنام الباطل وجيوش الطغيان ، حتى غيروا ما بأنفسهم فغير الله عليهم ، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل، ونزع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم فاستهانوا بهم ، وما عادوا يعبأون بهم[١٦] .

لقد جرت في العصور الأخيرة محاولات شتى لطمس الإيمان في قلوب المؤمنين وحرمانهم من طاقاته وإمكاناته ، والاستبدال به عقائد وأهواء باطلة من هنا وهناك ، "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الكافرون" (الصف ٨) ، وما درى هؤلاء أن العزة والإيمان في أمة الإسلام توأمان ، وأن المجد والقرآن في المسلمين صنوان ، فمن أراد العزة بغير الله أذله الله ، ومن أراد الرفعة بغير الإيمان كان من الخاسرين ، هذه حقيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تاريخية مسلم بها في حياة أمتنا ، لم ينتصر المسلمون يوما بغير الإسلام ، ولم ينهزموا في معركة إلا كان بينهم وبين الإسلام فرقة أو جفاء[١٧] .

ولتأكيد هذه الحقيقة يعلى الله تبارك وتعالى مكانة المؤمنين ومقام المجاهدين ، فيهب الثابتين منهم السكينة وعلو المنزلة ، ويربط ذلك كله بالإيمان وحده في وضوح لا لبس فيه ولا إبهام ، "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران ١٣٩) ، ويبطل كل زعم بالنصر بلا إيمان ، وكل ادعاء بالعزة بلا جهاد ، ويربط النصر بالله والخذلان بالتخلى عنه إلى غيره من المؤلهات الحجرية والبشرية والفكرية والمادية "إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذ لكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده" (آل عمران ١٦٠).

هذا صوت الحق الذى لاحق وراءه ، ولكن إذا كان هذا الصوت لا يستجيب له من كان في آذانهم وقر ، وغشيتهم ظلمة الباطل ، فلا يستمعون إلا لأعداء الإسلام ، ولا يستجيبون إلا لمن يخضع هاماتهم ويهدر كرامتهم ويذل كبرياءهم ، فليستمعوا لهاتين الواقعتين اللتين التقتا على الحقيقة التى لا ريب فيها .

لقد لقى أحد قادة اليهود مجموعة من شباب المسلمين فصافحهم بخبث غادر ، وأبى أحدهم مصافحته قائلا : أنتم أعداء أمتنا تحتلون أرضنا وتسلبون حريتنا ، ولكن يوم الخلاص منكم لابد آت بإذن الله لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ "لتقاتلن اليهود ، فلتقتلنهم حتى يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودى فتعال فاقتله"[١٨] ، فابتسم القائد الماكر ، ثم قال : حقا سيأتى يوم نخرج فيه من هذه الأرض ... ولكن متى ؟ ، إذا قام فيكم شعب يعتز بتراثه ويحترم دينه ويقدر قيمه الحضارية ، وإذا قام فينا شعب يرفض تراثه ويتنكر لتاريخه ، عندها تقوم لكم قائمة وينتهى حكم إسرائيل .

وقد راهن قبل ذلك أحد الطلبة اليهود في لندن زملاءه الطلاب على أن إسرائيل سوف تكسب الحرب إذا وقعت ، فلما سئل عن أسباب ثقته بما يقول ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال : مادمتم تدعون إلى قومية ... ، وعروبة ... ، واشتراكية ... ، وغير ذلك ، فنحن لا نخافكم ، نحن منتصرون ، أما إذا ذكرتم الإسلام فإنا نخافكم ، فإن خضتم المعركة على أساسه كنا خاسرين" (١٩) .

ترى ، هل ذهب هذان اليهوديان بعيدا عن حقيقة الأمر ؟ أم تراهما كانما يقرآن حديث رسول الله ﷺ عن الخلوف في قوله : "ما من نبى بعثه الله عز وجل إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لايفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون"(٢٠) .

فهل تصحو الأمة على هذه الحقيقة ، وتربى أجيالها على معانى الكرامة والعزة والإيمان بالله ، أم تغيب من جديد وتستغشى ثيابها في كارثة جديدة ، ودوامة من التخبط والضياع لا تجنى منها غير شعارات الخذلان والهوان أو الادعاء والغرور ؟.

هذا وقد حدثنا القرآن الكريم فيما قصه عن الرسل وأممهم ، وتكلم التاريخ وأثبتت التجارب أن الإيمان أكبر عامل في الانتصار ، كما جرت سنة الله تعالى أنه مع المؤمنين الصادقين ومن كان الله معه فلا يغلبه غيره ، ومن ثم يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة كثيرا ، وفي صور عدة من مثل قوله تعالى : "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا" (غافر ٥١) ، ويجعل ذلك حقا عليه تفضلا وكرما "وكان حقا علينا نصر المؤمنين" (الروم ٤٧) ، بل إنه ليقسم على ذلك فيقول تعالى : "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون " (الصافات ١٧١-١٧٣) .

ومن شأن المؤمن الحق ألا يكترث بشئ مع معونة الله له ؛ لأنه إنما يقاتل وكلام الله يقرع سمعه ويتردد على لسانه مشعلا لجذوة الإيمان في قلبه ، وباعثا للحماس في نفسه ، "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ..." (التوبة ١١١) ، وما أروعها كلمة خالد بن الوليد - وهو يشحذ همم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنوده ويستثير بطولتهم – : "لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وإن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له" ، "ذلك بأن الله مولى الذين أمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم" (محمد ١١) (٢٠م) .

إن الإيمان الحق الذى تمتلئ به قلوب المؤمنين وعملهم الصالح الذى يقتضيه إيمانهم الحق هما مصدر ثقتهم في نصرة الله لهم ، واطمئنانهم إلى وعد الله باستخلافهم في الأرض والتمكين فيها في أمن وعز وسلطان "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون" (الأنبياء ١٠٥) ، "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون" (النور ٥٥-٥٦) .

ولطالما حاك في صدور كثير من الناس مدى الصدق في هذا الوعد مع واقع المؤمنين ، وكان التفاوت بين الوعد والواقع مبعث افتتان بعضهم وارتيابهم ؟ .

والحق أن الله إنما ألزم نفسه تجاه من قد ألزموا أنفسهم - بالمقابل - أن يضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ - كما توضحه الآيات - وأن يتعاملوا مع الحياة وفق المنهج الذى ألزمهم الله به ، وبدافع من الخضوع لجلاله والخوف من عقابه ، كما قال تعالى : "وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد" (إبراهيم ١٣-١٤) ، والقيد الذى أتبعه الله البيان الإلهى "ولنسكننكم الأرض من بعدهم" وهو قوله : "ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد" أغلق السبيل أمام أى احتجاج أو استشكال ، وإنك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتجد صريح هذا القرار في مثل قوله عز وجل السابق : "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ..." (النور ٥٥-٥٦) ، فإن عمل الصالحات يستوعب كل مقتضيات الإيمان ، والتزام المنهج القرآني في التعامل مع الحياة ، فقد خرج إذن بمقتضى هذا الالتزام كل من تحولت حقائق الإيمان في حياتهم إلى أطر ومظاهر ، وانفصل واقعهم السلوكي عن سلطان ذلك الإيمان في حياتهم ليدخل في سلطان الدنيا وشهواتها [٢١] ، والانشغال بنعائمها عن شكر المنعم ومراقبته .

جاء في الأثر عن أبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وصحبه المدينة ، وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ ، فنزلت الآيات[٢٢] وقد وفي الله بوعده فدانت لهم جزيرة العرب في عهده ﷺ ، فوضعوا السلاح وأمنوا ، ثم قبض الله نبيه ﷺ فكانوا آمنين في إمارة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل الله تعالى عليهم الخوف وغيروا فغير الله تعالى ما بهم[٢٣] .

هذا وعد الله باق حتى يوم القيامة ، وسنته لن تتبدل فعلى من يريدون النصر والتمكين والأمن والسلطان أن يقوموا بما طلب منهم ويسيروا في طريق سلفهم ، لا يحيد بهم عنه كثرة في عدوهم ولا قلة في عتادهم ، وحسبهم ما يعوضهم عن هذا كله من إيمانهم الحق بالله ، واعتزازهم بإيمانهم ، وثقتهم في أنفسهم ، وإخلاصهم الدين لله وتعيينهم بمعية الله وولايته إياهم ، ومن كان الله معه فليس بحاجة إلى غيره ، وهذا ما جعل عبد الله بن رواحة يخطب في ثلاثة آلاف من المسلمين وهم في مواجهة مائة وخمسين ألفا من أعدائهم في مؤتة مشجعا لهم : يا قوم ، والله ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة[٢٤] .

ولم يكن كل ذلك ليتحقق للأمة إلا بقوة الإيمان ورسوخه في قلوب أصحابه ، وقد عرف ذلك القاصى والدانى وصدقه واقع تاريخ المسلمين منذ نزل عليهم القرآن الكريم ، وغيروا بعملهم على منهجه وجه الدنيا ، ودانت لهم الأرض وتسنموا ذراها بعد أن كانوا مرشحين للزوال قبل الإسلام ، ولكن بضعة نفر من هؤلاء آمنوا حقا برب محمد وبرسالة محمد ﷺ ، وجعلوا الحياة كلها معبدا يطيبون محرابه باسم الله ، ومن كل شبر مسجدا يذكر فيه اسم الله وحده- هذه الحفنة هزت العالم كله ، ومضت تنشر النور والخير والسلام والمحبة بقوة الإيمان الموحد ، وما هى إلا مائة عام تمضى حتى وصل هؤلاء إلى غرب الدنيا وشرقها وأصبحوا سادة على أعظم الأمم وأقواها[٢٥] .

وقد يستطيع المسلمون اليوم حشد طاقات هنا وهناك لا سترداد حقوقهم الضائعة ومداواة جراحهم الغائرة ، وهيهات لهم شئ من ذلك لو أداروا ظهورهم لله ، بل لن يدركوا إلا ذل الدهر وخذلان الأبد ، ولن يغنى عنهم أن يعطف عليهم ذلك الفريق أو يشد أزرهم غيره ، "أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور" (الملك ٢٠) ، وليس أمامهم من سبيل للنصر ، بله استرداد وجودهم وتحقيق ذاتهم ، واستعادة النضرة لوجوههم التى كساها الهوان إلا سبيل العودة إلى الإسلام ظاهرا وباطنا ، وترسم هدى القرآن الكريم في صدق الإيمان وحسن العمل [٢٦] .

فهل يؤمن قومنا ويعودون إلى الله أم تمضى فيهم سنة الأولين ، أولئك الذين لم يؤمنوا حتى رأوا العذاب الأليم ؟ ، ألا إن السياط الموجعة إذا لم تفلح في إعادة الرشد إلى الزائغين فستتبعها قوارع فاجعة وهزائم فاضحة[٢٧] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً : التقوى المطلقة :

ولئن كان الإيمان الحق هو رأس العوامل المعنوية في تحقيق النصر ، فإن شهود هذا الإيمان وترجمته واقعا حيا في دنيا الناس ممثلا في تلك القيم العليا والفضائل الكبرى التى يتحلى بها المؤمنون ، ويتخلوا عما يضادها من قبائح ورذائل خلقية - هو الأمارة الحقيقية لهذا الإيمان الحقيق بالنصر ، تلك الأمارة التى صاغها خطاب الدين في كلمة واحدة هى : "التقوى" (٢٨) ، وضمنها جماع الفضائل التى تسعد بها الأمم ، وتحقق وجودها الحق بله الانتصار على أعدائها ، وبها يتحقق التفاعل بين هداية السماء واستجابة الأرض لتحقيق هذا الوجود الحق .

وهذه هى الثمرة الحقيقية للتقوى التى هى لباب الدين وسياج نظمه الدقيقة والجليلة ، ورباط تعاليمه في المجتمع وشتى مناحى الحياة ، وكما تورث تقوى الله والاستقامة على نهجه صحة في البدن وصلاحا في النفس والبال ، وتوفر لصاحبها الراحة المادية والمعنوية ، فإنها تحفظ له في عاجل عمره وآجله أنصبة من الخير يستحيل أن تتاح لغير المتقين ، ولا يشكن أحد في جدوى الصلة بالله وما أعده لعباده المتقين ، فإن الصديق الكريم لا يضيع صديقه ، وبئس الظن بالله أن نحسبه يضيع أولياءه المتقين أو يتنكر لهم .

قال ﷺ : "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة همه جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا كان الله إليه بكل خير أسرع" (٢٩) .

فليست التقوى - على ما قد يفهم - هجرا للحياة وتخففاً من الدنيا ، وانقطاعاً عن المجاهدة في رهبانية خاشعة ، وإنما هى انغماس في الحياة ، وعلاج لباطلها بالحق ، ومقاومة لطواغيتها بالقوة في طريق يتجشم المتقون السير في رمضائه ، ويمضون فرسانا لا رهبانا ، ولا يدعون آثام الدنيا تشيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الناس بغير نكير ، بل يغدون ويروحون آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر في جهاد مبرور ومشكور .

وقد ربط القرآن الكريم فعلا في مواضع كثيرة بين النتائج المتحصلة من الإيمان وإعمال السنن الاجتماعية بالتقوى وما تؤدى إليه من بصيرة في النظر ، ومعرفة الحق ، وبلوغ الأمل ، وتجاوز الشدائد والمحن في مناحى الحياة جميعا ، تماما كما ربط انهيار الأمم وسقوطها بافتقادها التقوى وشيوع الظلم والفسق بين أفرادها .

قال تعالى : "يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا" (الأنفال ٢٩) ، "واتقوا الله ويعلمكم الله" (البقرة ٢٨٢) ، "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب" (الطلاق ٢) ، "ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا" (الطلاق ٦) ، "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" الأعراف ٩٦) ، "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا" (نوح ١٠-١٢) .

وقد تأكد للبشرية باختلاف أممها وتجاربها ما قرره القرآن الكريم من دور التقوى ودستورها الجامع في بلوغ النصر ومجانبة الفشل والخذلان ؛ لأن التقوى في الحقيقة تمثل جماع الشعب العامة للإيمان وقيمه الخلقيه العليا ، فحين حاقت الهزيمة بالروم في يوم واحد وكانوا أضعاف أضعاف المسلمين سأل أحد أمرائهم- وقد بلغ به العجب حين رآهم منهزمين في كثرة ساحقة - أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟ .. أأنتم أكثر أم هم ؟ ، فما بالكم تنهزمون ؟ ، فأجاب شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أننا نشرب الخمر وننقض العهد ، ونغصب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونظلم ، ونأمر بما يسخط لله ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد في الأرض"(٣٠).

وقال زعيم غربى بعد سقوط بلاده في الحرب العالمية الثانية موضحا لقومه أسباب الهزيمة ، ومرشدا لهم إلى النصر : "لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الشهوات ما شيدته روح التضحية ، وإنى أدعوكم أول كل شئ إلى نهوض أخلاقى"(٣١) .

أما "مونتجمرى" قائد القوات البريطانية المنتصرة فقد قال عن الجيش الثامن وعوامل انتصاره : "إن قصة الانتصار تنطوى على مغازى روحية عظيمة إلى جانب مغزاها العسكرى ، فقد دلت على أن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقى ، ويقينى أن الجيش إذا سار بدون مرضاة الله فقد سار إلى غير هدى ، وعلى كل جيش أن يشن حربا داخلية لتنظيم صفوفه قبل أن يفكر في شن حرب خارجية ضد أعدائه ؛ لأن خطر الانحطاط الأخلاقى في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو ، لذلك لا نستطيع أن ننتصر في أية معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شئ" (٣٢) .

فهل ذهبت تقارير هؤلاء القادة بعيدا عن وصايا المسلمين الأوائل وتجربتهم في هذا الشأن الحيوى المهم ؟ ! يقول أبو بكر الصديق لقائده خالد بن الوليد حينما أرسله لقتال المرتدين : "عليك بتقوى الله وإيثاره على ماسواه ، والجهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك .." (٣٣) .

ومن وصية عمر بن الخطاب إلى قائده سعد بن أبى وقاص : "أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، يا سعد بن أم سعد ، لا يغرنك أن يقال عنك خال رسول الله ، فإن الله لا يمحو السئ بالسئ ، ولكنه يمحو السئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته .. وإنى آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس "فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا" (الإسراء ٥) ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم" (٣٤) .

ومن وعى المسلمين بهذه الحقيقة بات مقررا لدى خاصتهم وعامتهم على السواء أن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الأمة الظالمة وإن كانت مؤمنة ؛ لأن ظلمها وعدم تقواها قد نقض إيمانها بيقين .

وقبل هؤلاء وأولئك جميعا أعلن الرسول ﷺ أن الأخلاق الكريمة هى أساس الفوز والفلاح في السلم والحرب ، فقال : "بعثت لأتمم حسن الأخلاق"(٣٥) ، ولأن النصر إنما يتحقق للمجتمع الصالح المبنى على الخير ومكارم الأخلاق فقد أمرنا الله بتكوين هذا المجتمع الصالح عن طريق الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال : "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" (آل عمران ١٠٤) .

والمتأمل في آيات القرآن الكريم العديدة والتى ارتبط فيها نصر الله بتقواه وأنه مع المؤمنين المتقين ينتهى إلى حقائق مهمة :-

أولاها : أن معية الله للمتقين وحبه لهم إنما هى معية خاصة - فوق المعية العامة - فهو معهم بالتوفيق والتأييد والمعونة والنصر والتمكين في الأرض ، وهذا ما نجده واضحا في مثل قوله تعالى : "الشهر الحرام بالشهر الحرام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين" (البقرة ١٩٤) ٠

ومن التقوى هنا أن تراعى حرمات الله زمانا ومكانا ، وألا يبدأ المؤمنون غيرهم بقتال ، وألا يتجاوزوا في رد العدوان عليهم ما وقع بهم ، فإذا انتهك الأعداء حرمات الزمان والمكان فجزاؤهم أن يحرموا أمنها ويقاتلوا فيها جزاء وفاقا في غير إسراف ولا مغالاة ؛ لأن ما فعلوه عدوان منهم ، وجزاء العدوان أن يقابل بمثله قصاصا وعدلا ، قال تعالى : "ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور" (الحج ٦٠) ٠

ويوضح لنا قوله تعالى : " وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين" (التوبة ٣٦) حقيقة ثانية ، وهى أن قتال المشركين والكفار للمؤمنين موجه في حقيقته لدينهم ، وغايتهم فيه إطفاء نوره في المقام الأول مع ما يتبع ذلك من كسب منافع مادية ، أو انتقام وتسكين أحقاد ٠

ومن التقوى ههنا الغيرة على الدين واجتماع الكافة للنضال دونه ، وأن يكون المؤمنون أولى بالاتحاد والتعاون لدفع العدوان عليه وإعلاء كلمة الله ، وابتغاء الأجر العظيم المعد للمجاهدين في سبيله ، وأن يتفطن المسلمون ولا يغفلون عن هدف عدوهم "ودوا لو تكفرن كما كفروا فتكونون سواء" (النساء ٨٩) ٠

والاعتداء على الدين ظلم وإفساد في الأرض بالشرك والمعاصى ، وصد عن سبيل الله واختصاصه وحده بالعبادة ، ومن التقوى هنا - وهذه هى الحقيقة الثالثة - مقاومة هذا كله ، ورفض أسباب الفشل والخذلان في القتال كالتنازع وتفرق الكلمة ومخالفة سنن الله وتشريعاته التى جعلها الله سببا للنصر والفلاح ، ولن يكون الله مع المتقين حقا بالتوفيق والسداد والنصر والإمداد إلا إذا راعوا أحكامه وسننه ، وابتعدوا عن التقصير في أسباب الظفر والنصر ، وتركوا الرياء والعجب ، ثم توكلوا عليه بعد ذلك فيما وراء الأسباب والسنن ٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأصدق ما تكون التقوى وأشدها في استجلاب النصر عندما يكون المؤمن في مواطن اللقاء وساحات الاستشهاد التى يرى فيها الموت بعينيه ، وهو موقن أن الله يراه فلا يولى الأدبار ولا يكسل أو يتخاذل ، بل يقبل بشجاعة وإخلاص ، ويخوض القتال في صبر وجلد وهو ينتظر إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وكلاهما حبيب عنده فيكون النصر بإذن الله .

وقد أكد الله في آيات عدة حبه للمتقين ، وإذا كان يحبهم فإنه لا شك ناصرهم على أعدائهم ، ولا عجب أن نجد كثيرا من هذه الآيات موضوعها قتال المؤمنين لغيرهم ، والتزام المؤمنين التقوى في هذا الموضع الذى هو مظنة الخروج عنها إلى غيرها قمين باستحقاقهم حب الله لهم ونصرته إياهم ، قال تعالى : "بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين" (آل عمران ٧٦) ، وقال : "فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين" (التوبة ٤) ، وقال : "فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين" (التوبة ٧) .

وحين أخبر الله تعالى بنهاية الأقوام وعواقبهم كانت نهاية المتقين وعاقبتهم هى الحسنى والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وأنهم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، ومن كانوا سعداء كذلك فهم منصورون ، قال تعالى : "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" (الأعراف ١٢٨) ، وقال : "فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (الأعراف ٣٥) .

كما تؤكد آيات أخرى في شرطية لازمة أن تفريج الكروب والضوائق ، وتيسير العسير من الأمور والشدائد منوط بهذه التقوى ، قال تعالى : "ومن يتق الله يجعل له مخرجا" (الطلاق ٢) ، فمن يتق الله باجتناب المنهيات وفعل المأمورات يجعل الله له مخلصا من كربات الدنيا وشدائدها وعذاب الآخرة وأهوالها ، ولا شدة أعظم في الدنيا من بأس الحرب إذا حمى وطيسها واشتد لهيبها ، وقال تعالى : "ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا" (الطلاق ٤) أى يجعل له من العسر يسرا ، وينير له طريق الهدى في كل ما يعرض له من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشكلات ، ولا عسر أشد من الحرب وأهوالها ، والله يتكفل للمتقين بنصرتهم وتغلبهم على هذه الضوائق جزاء على تقواهم ونصرتهم لدين الله ومنهجه .

وهكذا تتوالى الآيات وتتكرر البينات مؤكدة أن الله مع المتقين ، وأنه يحبهم وأن العاقبة الحسنى لهم ، وأن الله يجعل لهم من كل ضيق مخرجا ، ومن كل هم فرجا ، ومن كل عسر يسرا ، وأنهم هم المفلحون وهم الفائزون وهم الغالبون ، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وكل ذلك ليكافحوا وهم مطمئنون على مستقبلهم ويجاهدوا وهم واثقون بأن الله معهم يتولى أمورهم وينصرهم على أعدائهم .

هذه سنة الله في خلقه التى لانجد لها تبديلا ولا تحويلا ، وبهذا النهج من التقوى ينتصر المسلمون وتعلو كلمة الله حتى لو بدا الأمر على غير ذلك ، "فعندما انكسر المسلمون وسقطت دولتهم على أيدى التتار المغيرين - لم تفن الأمة ولا ضاع دينها ، بل لم تمض أيام حتى ذاب التتار في غمار المسلمين فطوتهم الأوطان الإسلامية وانخرطوا في دينها وتقاليدها ، ثم مضت أيام أخرى فإذا بالمغيرين يتولون جندا للإسلام ، ويمدون أمته بعناصر جديدة بادية الحماس شديدة الوطأة ، وبدهى أن هؤلاء ما اعتنقوا دين المغلوب وأعجبوا بتقاليده إلا لأن الأمة التى انهزمت عسكريا ظلت من الناحية الاجتماعية والعلمية أرجح كفة من الغزاة المزهوين" (٣٦) .

ونحن المسلمين - اليوم - أحوج ما نكون إلى هذا المنحى الخلقى والاجتماعى الذى نحسن فيه - من جهة - صلتنا بالآخرين اعتمادا على الحكمة والجدل الهادئ في عرض قضايانا وقضايا ديننا المظلوم ، ونضمن به - من جهة ثانية - عناية السماء بنا ، ونستوثق أن الله معنا ، ولا يكون ذلك إلا بتطهير النفوس والتزام التقوى ، إن الغنى قد تطغيه ثروته ، والقوى قد تبطره قوته ... أما أن يطغى البائس ويستكبر العاجز وينسى المستضعفون في الأرض ربهم وما يجب له من توقير وعبادة فهذه هى الطامة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونحن المسلمين إذا كنا - على ما نزل بنا - سنظل سراعا إلى مواطن الأثرة والحقد والقطيعة - فكيف نأمل أن تعمل قوى السماء معنا وأن تعز جانبنا المهيض ؟ ، إننا أفقر خلق الله إلى تأييده بإصلاح ما بيننا وبينه ، والاستقامة على سننه السمح الرحيم ، ويوم تكون أحوالنا من السمو والسناء بحيث تجعل البشر يرمقوننا بإعزاز وإعجاب ، ورب البشر ينظر إلينا برضا وقبول فسوف تنكشف الكروب كلها ، أما أن نغضب الله بالعصيان وننأى عن ... ه بسوء السيرة فأمر لا تصلح به دنيا ولا يصلح به دين ، إننا لو انهزمنا أمام الغرب هزيمة المسلمين الأول أمام التتار لأوشك الغرب أن يدخل في ديننا ونصير وإياه سواء ، أما أن نتحول نحن إلى أخلاق التتار أنفسهم فتلك هزيمة لا قيام منها آخر الدهر" (٣٧) .

فإذا كنا صادقين اليوم في التحرق على أرضنا المغصوبة ورد الظلم الواقع بنا ، وأن ذلك لا يكون إلا بالجهاد الحق - فلا سبيل إلى ذلك إلا بالاصطلاح مع الله والخضوع لأحكامه استجابة لأوامره وتجنبا لنواهيه ، فإن فعلنا ذلك عن طواعية ويقين كان نصر الله مضمونا ، لقد أصغى جند القادسية من قبل لوصية عمر بن الخطاب لقائدهم في تقوى الله ، وجعلوا منها عنوان سلوكهم ومنهج حياتهم فتهاوت أمامهم حصون فارس ، وسجل التاريخ بهم اسم القادسية غرة في جبين الدهر لا تمحوه الأحقاب ولا تأتى عليه الدهور ، أما اليوم فمن يدرى لعل من بين المسلمين أشبالا لأولئك الجنود يصغون من جديد - بكل وجدانهم - إلى تلك الوصية ويضعونها من حياتهم موضع العناية والتنفيذ ، فيعيد التاريخ نفسه ويتحقق نصر الله لعباده التائبين الصادقين(٣٨) وقد قال ﷺ : إن أمتى مثل المطر لايدرى أوله خير أو آخره" (٣٩) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثالثاً : نصر دين الله

هذا وقد زودنا الهدى القرآنى بصورة حية وصادقة لالتقاء الإيمان الحق والتقوى المطلقة متمثلة في نصرة المؤمنين المتقين لله تعالى ولدينه كوسيلة من وسائل نصره للمؤمنين وشرطا لاستحقاق هذا النصر ، وقد أفاض القرآن الكريم في هذه الجوانب الثلاثة بأساليب متنوعة - وإن بدا أن الحديث عن أى منها هو حديث عن بقيتها - ليؤكد لنا حيوية هذا الدين ، وبعثه الحماس في نفوس أصحابه والحمية الدينية في قلوبهم ، فتتعمق العقيدة ويصدقها العمل وينفعل بها المؤمنون في كل تصرفاتهم نصرة لله ولدينه واستحقاقا لنصرة الله لهم .

وقد جاء تنويه الله عز وجل بهذا السبب في النصر في صور متنوعة تلتقى عند وعد الله الذى لا يتخلف للمؤمنين بالنصر وعهد الله لهم به في مشارطة جازمة ما إن يتحقق طرفها الأول لديهم بنصرتهم لله ولدينه حتى يتحقق طرفها الثانى بنصرة الله لهم ، قال تعالى : "يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد ٧) (٤٠) .

وفي معنى هذه المشارطة تجئ كثير من آيات القرآن الكريم مؤكدة لهذه السنة التى لا تتخلف ولا تتبدل شأن السنن الكونية التى يتحتم حدوثها بحدوث أسبابها وما يؤدى إليها ، قال تعالى : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" (الحج ٣٩-٤١) ، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده" (الروم ٥-٦) ، "فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين" (الروم ٤٧)، "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(غافر ٥١) ، "وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين" (الصف ١٣) .

وفي هذه المشارطة الجازمة والوعد المحقق بالنصر والسنة التى لا تتخلف من نصرة الله لعباده المؤمنين إن هم نصروه - قضايا مهمة ومعان عظيمة ينبغى استجلاء هدى القرآن الكريم فيها ولفت الانتباه إليها .

١-إنه إذا كان مفهوما لدى المسلمين نصرة الله لهم بتأييدهم وإعانتهم على أعدائهم وإعلاء كلمتهم ومكانتهم بين الأمم ، وصيانة بلادهم وحقوقهم وحفظها من الطغاة والمعتدين وغير ذلك مما هو جزاء لهم على نصرتهم لله - فكيف يحقق المؤمنون ما اشترطه الله عليهم من نصرتهم له حتى يستحقوا نصره لهم ؟ ، وبماذا تكون نصرتهم له حتى ينالوا ما اشترط لهم من النصر والتثبيت ؟

فأما نصرة المؤمنين لله فجائز أن تكون نصرتهم لدينه ورسوله ﷺ ؛ إذ هو جل شأنه المعين الناصر ، وغيره المعان المنصور[٤١] ، وجائز أن تكون نصرتهم لحزب الله وفريقه من إخوانهم المؤمنين [٤٢] ، وجائز أن يكون ميدان النصرة - كما رأى الفخر الرازى - هو الجهاد والقتال في سبيل الله حيث يقول : "المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه ، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه ، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه[٤٣] .

وإذ تتجه هذه الأقوال في مجموعها إلى التخصيص في ميادين النصرة التى تتسع لها جوانب الدين الإسلامى وحياة المسلمين - فالظاهر أن نصرة المؤمنين لله عامة وشاملة لكل ذلك وما وراء ذلك ؛ إذ إن لله في نفوس المؤمنين أن تتجرد له ولا تشرك به شيئا وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في سرها وعلانيتها وحركاتها وسكناتها ونشاطها كله ، فهذا نصر المؤمنين لله في ذوات نفوسهم ، وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، ونصرة المؤمنين لله تتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه وتحكيمها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة[٤٤] ، أو كما قال الراغب : "ونصرة العبد هى نصرته لعباده ودينه ، والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده ، والتزام أحكامه واجتناب نواهيه" [٤٥] .

هذا ولا تكون نصرة المؤمنين لله على هذا النحو إلا إذا كانت خالصة له، ومجردة عما يتلبس بها من أغراض تحرمهم من نصرة الله لهم وظفرهم بإحدى الحسنيين ، وهذا الإخلاص لله هنا شرط قاطع في ذلك تماما كاشتراطه في نيل الحسنى الأخرى من الشهادة في سبيل الله ، وكما لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون ذلك في سبيل الله - فلا يكون انتصار للمؤمنين إلا إذا كانت نصرتهم لله وحده في ذوات أنفسهم وفي واقع حياتهم ، وأن تكون شريعة الله هى الضابطة لأوضاعهم ونظامهم على السواء ، ومنهج قرآنهم هو الحاكم لضمائرهم وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي سؤال الصحابة رضوان الله عليهم للرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك في سبيل الله ؟ ، كانت إجابته ﷺ واضحة وحاسمة في هذا الشأن "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله" [٤٦] .

وهذه لفتة يحسن أن يدركها المؤمنون المخلصون ، وأن يخلصوها في نفوسهم من كل ما يتعلق بها ، أو يلبسوا هدفهم في نصرتهم أهدافا أخرى ، وإذا عز على بعض المؤمنين أن يتخلصوا من هذه الأهداف الأرضية ويتجردوا لله - فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم من منطق البيئة الذى لا يتفق مع هذه البدهية في شرط الله[٤٧] .

٢-هذا شرط الله على الذين آمنوا ، فأما شرطه لهم أو جزاء ما اشترطه عليهم ووعدهم به فهو نصره لهم ، إما في الحياة عامة وتثبيتهم على الإسلام وصراطه المستقيم ، وتوفيقهم للدوام على طاعته[٤٨] ، وإما على أعدائهم خاصة وفتحه عليهم وتثبيت أقدامهم عند القتال ، ومعونتهم في مواطن الحرب ومواقفها ولقاء الأعداء ونزالهم وتطمين قلوبهم ، وهو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعد حق على الله كما قال : "وكان حقا علينا نصر المؤمنين" (الروم ٤٧) لا يتخلف ولا يتبدل[٤٩] .

وها هنا سؤالان مهمان : **أولهما** : عن لزوم هذا الشرط من الله على المؤمنين ليرتب نصره لهم على نصرهم له ، وهو صاحب القدرة والقوة التى تتجاوز هذا الشرط وبخاصة لأوليائه من المؤمنين المتقين ، ففيم إذن الجهد والمشقة والتضحية والآلام ، والعاقبة جد معروفة ومتيقنة من ولى المؤمنين ومولاهم الذى لا ناصر لهم سواه ؟

وثانيهما : عن هذا التلازم بين الشرط والجزاء مع أن الواقع كثيرا ما يكشف عن انفكاك هذا التلازم ، وافتقاد المؤمنين للنصر - فيما يرون - أو إبطائه بهم حتى ليظن أنهم على غير طريق الحق ، وأنهم ليسوا أهلا لنصرة الله إياهم ؟

فأما عن السؤال الأول فمن حكمة الله في هذه اللزومية - فيما نعقل وندرك نحن البشر - أنه لم يرد للمؤمنين وحماة دينه أن يتنزل عليهم نصره سهلا رخيصا بلا عناء وهم يجلسون في استرخاء مكتفين بصلواتهم ودعواتهم ، بل شاءت إرادته أن يكون دفاعه عنهم ونصرته لهم عن طريقهم هم أنفسهم[٥٠] ، كى تستيقظ فيهم كل طاقاتهم المذخورة وهم يواجهون الأخطار ، والأمة الحية البناءة التى تقوم على دعوة الله في حاجة إلى إيقاظ كل خلاياها ، وحشد كل قواها لتتهيأ لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها ، والنصر السريع الذى لا يكلف عناء والذى ينزل هينا لينا على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، فلا يحفزها ولا يستدعيها ، فوق أنه سهل الفقدان والضياع ؛ لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، ومن نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ، فلا تتحفز أو تحتشد للدفاع عنه .

ومن حكمة الله في هذه اللزومية التدريب العملى للأمة وتربيتها وجدانها بالمواجهة مع أعدائها وهى تتلقى النصر أو الهزيمة ، وتتأرجح بين القوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والضعف ، وما يصحب ذلك من مشاعر الأمل والألم والسكينة والقلق ، وما تتعلمه الأمة من التجمع والتفرق والتنسيق والترتيب وتدبير الأمور في جميع الحالات ، وكل ذلك ضرورى للأمة التى تحمل دعوة الله إلى الناس وتقوم عليها .

ومن أجل ذلك كله - وغيره مما يعلمه الله - جعل الله نصره لعباده المؤمنين يتم عن طريقهم هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم بلا عناء .

وأما عن السؤال الثانى وما يبدو فيه من واقع - في إدراك البشر - قد يخدش سنة الله في نصره لعباده المؤمنين ، أو يشكك في وعده بذلك - فإن الواقع يشهد من جهة أخرى - إذا ما دققنا النظر - أن نصر الله لعباده ووعدهم بذلك سنة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم التى يعرفها الله لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين[٥١] ، وذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ، ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله[٥٢] .

فقد يبطئ النصر لأن الأمة لم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تبذل أقصى جهدها ، فلو نالت النصر لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته ، وقد يتأخر النصر حتى تستنفد الأمة آخر قواها في سبيل الله ، ثم تدرك أن هذه القوى وحدها دون سند من الله لا تكفل النصر ، إنما يتنزل النصر من عند الله بعد بذل الجهد ورجع الأمر كله لله ، وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله التى تضمن لها استقامتها على نهجه وثباتها على طريقه بعد النصر ، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق الذى نصرها الله به ، وقد يبطئ النصر لعدم تجرد الأمة لله في كفاحها وبذلها ، والله يريد ذلك في سبيله وحده بريئا من كل المشاعر التى تلابسه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذى يكافحه المؤمنون بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليذهب وحده هالكا[٥٣] ، أو أن الباطل لم ينكشف زيفه تماما فيبقيه الله حتى ينكشف عاريا للناس ، أو أن بيئة المؤمنين ونفوسهم بها ما لا تصلح به لاستقبال هذا النصر ، فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقباله واستبقائه[٥٤] .

من أجل هذا كله - وغيره مما يعلمه الله - قد يتأخر النصر ، ولكنه متحقق في النهاية "سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" (الفتح ٢٣) .

على أن للنصر - بعد ذلك كله - تكاليفه وأعباءه حين يأذن به الله ، يشير إلى بعضها تعبير الآية الكريمة من تثبيت الأقدام بعد النصر ، فليس النصر نهاية المعركة ، بل له تكاليف وتبعات في ذات النفس وفي واقع الحياة من عدم الزهو به والبطر ، وعدم التراخى والتهاون ، وكثير من النفوس تثبت على المحنة والبلاء ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء ، وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر ، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن الكريم من تثبيت الأقدام بعد النصر ، وتضمن وعد الله المؤكد بالنصر ما يستلزمه من تبعات ومهام في قوله تعالى : "ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" (الحج ٤٠-٤١) .

لقد أقسم الله على وعده بنصرة من ينصره ، وأكد قسمه ووعده بما نوه به من قوته وعزته ، فكان تأكيدا بعد تأكيد حتى يزداد المؤمنون يقينا بأن الله معهم في البأساء والضراء وحين البأس وفي مواطنهم كلها متى نصروا الله ؛ لأنه القوى القادر على كل ما يريده ، العزيز الذى لا يمانعه شئ ولا يدافعه ، بل كل شئ ذليل لديه وفقير إليه ، ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقهور ، "ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم" (محمد ١١) ، ومن كان الله مولاه وناصره لا يخشى عدوا مهما كان عدده وعتاده ، وأدوات حربه وآلاته ، ومهما سبق باختراع أو قوة فلن يعجز الله القوى العزيز الخالق لهذه الآلات وعناصرها ، والمودع فيها خواصها وآثارها ، "ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون" (الأنفال ٥٩) .

نعم ، إنهم لا يعجزون الله ، ولا يقفون أمام وعده ونصرته لمن نصروه ما داموا على نصرتهم له ، وتمسكهم بما استحقوا نصره لهم ، وتحققهم بصفات المؤمنين المتقين التى أشارت إليها الآية الكريمة حين يمكن الله لهم من التصرف في شؤون الناس وولاية أحكامهم وقيادة أمورهم ، فلا يطغون ولا يتبطرون ، بل يحافظون على القيام بهذه الأمور الأربعة التى تظهر نصرتهم لله ، وتمثلهم بها دستورا لحياتهم وشعارا يفرق بينهم وبين غيرهم ، من إقامتهم للصلاة التى تطهر نفوسهم وتصفى أرواحهم ، وتغرس فيهم عزة الإيمان وتصلهم بربهم مولاهم وناصرهم ، وإيتائهم الزكاة التى تطهر أموالهم وتقوى صلاة بعضهم ببعض ، وتغرس المودة والمحبة بين أفراد مجتمعهم ، وتعودهم على التعاون والبذل الذى يدعم وحدة صفهم وقوتهم ، وحرصهم الدائم على أمرهم بالمعروف والخير ونهيهم عن المنكر والشر لتكوين المجتمع الفاضل المستحق لنصر الله إياه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعاً : التعبئة والاحتشاد

لا تفتأ آيات القرآن الكريم تكرر كثيرا ما يعد المسلمين إعـدادا ممتـازا ، وتهيؤهم لملاقاة الشدائد والأهوال ، وتوطين قلوبـهم علـى الصـبر الصـادق لاحتمال أعباء المعارك ، والتضحية في سـبيل النصـر بـالأنفس والأمـوال والثمرات ، ويكشف احتفال القرآن الكريم بالتعبئة الروحية والحشد المعنوى عن خطورة هذا السلاح وأهمية هذه الوسـيلة بيـن أسـلحة المحـاربين ووسـائل انتصارهم ، ويؤكد كذلك أن هذا الاحتشاد الدائم والتهيؤ اليقظ برهـان الإيمـان وفريضة الإسلام التى لا يقبل الله فيها عذرا واهيا ولا استعذارا كاذبـا ، كمـا يزود المؤمنين بعناصر هذا الاحتشاد ومفردات التعبئة والاستعداد التـى يـأتى على رأسها فقه المعركة ، وإدراك الغاية والهدف منها والعلم بالحقائق المتعلقـة بها ، يقول الله تعالى : "يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكـن منكـم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفـروا بأنهم قوم لا يفقهون" (٥٥) (الأنفال ٦٥) ، "يأيها الذين آمنوا اصبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" (آل عمران ٢٠٠) .

ويرتفع هذا الهتاف والتحريض - في بعض مواضع القرآن الكريم - إلـى درجة الإنذار الرهيب لمن يتقاعس عن هذا الاستعداد ، فيقول تعالى للمسـلمين جميعا : "يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثـاقلتم إلـى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فـي الآخـرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شـيئا والله على كل شئ قدير" (التوبة ٣٨-٣٩) ، ثم يأمرهم بالمسارعة والنـهوض إلـى القتال على اختلاف أحوالهم وتفاوت قدراتهم بقوله تعالى : "انفروا خفافا وثقـالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون" (التوبـة ٤١) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا نرى الإيمان مع الجهاد والاستعداد له وحدة واحدة لا تقبل التجزئة ولا التفرقة ، ولم يتردد القرآن الكريم منذ بداية تكليف المسلمين بهذه الفريضة في خلع ربقة الإيمان عن كل متخاذل فاشل من حكماء العجز وعباقرة الجبن الذين لا يجيدون إلا انتحال المعاذير وتزييف الحقائق ، وما أكثر هؤلاء في كل عصر ومصر وهم يبدون في ثياب الحكماء الناصحين ، وما أكثر استعذارهم وتزييفهم الذى كفروا به ، يقول تعالى عن هؤلاء وأمثالهم : "يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ٠٠ (آل عمران ١٥٦) ، "وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ٠ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين" (آل عمران ١٦٦-١٦٧) ٠

وتطول وقفة القرآن الكريم مع هؤلاء الخارجين على الروح العام لجماعة المؤمنين بالشجب والاعتراض وفضح أمرهم ، لتؤكد لنا ضرورة تهيؤ الجماعة بأسرها لنداء واجب الإيمان ليكونوا جميعا تحت قيادتهم المؤمنة طائعين مختارين ، يلبى كل منهم بحياته وبكل قدراته وطاقاته ، فهو يفضح ذوى الأعذار الكاذبة ، ويكشف عن خبيئة نفوسهم وما أخفوه في صدق عنيف وصراحة مرة : "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ٠٠ " (الفتح ١١) ، "بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا" (الفتح ١٢) ٠

ويسخر القرآن الكريم - في موضع آخر - من معاذير الجبناء والمتخلفين ، فيقول : "لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم" (التوبة ٤٢) ، ولكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرآن يعاجلهم على الفور بهذه اللطمة القاسية "يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون" (التوبة ٤٢) .

ويصور لنا مفهوم التعبئة والاحتشاد في منطق الإسلام ما نقتطفه من حديث كعب بن مالك [٥٦] في تسابق المسلمين إلى إعداد سلاحهم وعدتهم للقتال ، وهو يصور لنا مدينة الرسول ﷺ بعد أن غادرها المسلمون قال : "فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ... أو رجلا مغموصا عليه النفاق"[٥٧] ، وينزل القرآن الكريم مسجلا هذه الأحداث لتكون عبرة لكل من تحدثه نفسه بالتقاعس أو التراخى عن الجهاد والنهوض إليه .

ويعى المسلمون عبر الزمان والمكان وتوالى الأجيال هذا الدرس العظيم ، فإذا الجهاد والاستعداد له هو برهان الإيمان ودليل اليقين ، وإذا التخاذل عنه والتراخى فيه واصطناع المعاذير للتهرب منه أمارة النفاق البشع وما وراءه من كفران بالله وبلقائه وباليوم الآخر ، وإذا التردد في النهوض إلى الجهاد ليس إلا اضطراب الشك في القلوب ، والريبة في كل ما يعنيه الإيمان ، قال تعالى : "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون" (التوبة ٤٤-٤٥) .

لا غرابة إذن أن نرى الرسول ﷺ في فهمه لهذه الآيات يرى الالتزام بالجهاد والاستعداد الدائم له مبدأ مشروطا في إيمان المؤمن ، ولا تكون مبايعته على الإسلام والدخول فيه إلا بالمبايعة على الجهاد[٥٨] ، بل إن من أصحابه من يسأله أى الأعمال أفضل ؟ ، فيجيبه ﷺ في تحديد حاسم "الإيمان بالله والجهاد في سبيله" [٥٩] ، ثم يأمر المسلمين عامة بأن يهيئوا أنفسهم للدفاع والجهاد فيقول : "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا" [٦٠] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والواقع أن هذا الموقف من النبى ﷺ ليس إلا تأكيدا لتوجيه القرآن الكريم وتطبيقا للآية الكريمة "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا" (النساء ٨٤) ، فالاستعداد الدائم للقتال وتحريض المؤمنين عليه - متى دعت دواعيه - من ضرورات الإيمان ومن المهمات الأولى للقيادة المسلمة الرشيدة حتى لا يكون تقاعس الجبناء في المجتمع مبررا لتخاذل الصادقين ، ومجهضا لتعبئتهم واحتشادهم .

ومن هذا التلازم والترابط بين الإيمان الحق وشرطه من الاستعداد الدائم بالتضحية العامة في سبيل الله ينبه القرآن الكريم المؤمنين إلى صور من المعاناة والآلام ، والمشاق التى تواجههم ، فيهيئ نفوسهم إلى الارتفاع والسمو والاصطبار عليها حتى يتهيأ لهم النصر والمكافأة من الله على تضحياتهم واحتمالهم .

وهكذا يتنزل القرآن الكريم ليقود المؤمنين إلى الطريق الحق والنصر المبين ، قال تعالى : "يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" (البقرة ١٥٣-١٥٧) .

ثم يشيد بالصابرين على كل حال "والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون" (البقرة ١٧٧) ، بل إن القرآن الكريم ليعلن أن دخول الجنة لم يكن ولن يكون إلا بالصبر على المكاره والبسالة والتضحية ، فيقول : "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأسا والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب" (البقرة ٢١٤) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا يتبين من هذه النصوص القرآنية - ونصوص أخرى كثيرة - الصورة الحقيقية للتعبئة العامة والاحتشاد الشامل لكل الأمة لا يتخلف عن القتال والمشاركة فيه - متى دعت دواعيه - إلا النساء والصبيان والعاجزون ، وإلا المنافقون المتخاذلون الذين لم يصدق لهم إيمان ولم تعمر قلوبهم بيقين ، كما يتبين أن الاستعداد الدائم والاحتشاد الكامل لملاقاة الأعداء هما آية الإيمان ودليله ، وأنه لا إيمان لقادر يتقاعس عن ذلك ولو كان فردا وفي المجاهدين عشرات الألوف ، وهذه هى التعبئة الحقة التى يفرضها الإسلام على المسلمين دفاعا عن شرف الإنسانية ، ونصرة لدين الله وحقوق عباده ، واستحقاقا لنصره الموعود ، وهو ثمرة هذه التعبئة الحقة والاحتشاد الصادق .

ولقد علم رسول الله ﷺ صحابته والمسلمين من بعدهم الحرص على هذه الروح العالية من الاحتشاد والرباط ، وعدم التهاون والتفريط في شئ من ذلك[٦١] ، وضرورة المداومة على التحريض وبث الحماس في النفوس وبخاصة قبيل المواجهة والنزال ، ومن ذلك ما جاء في خطبته ﷺ في يوم بدر : "أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ويحب الصدق ... وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ... وفيكم نبى الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شئ من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : "لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم" (غافر ١٠) ، انظروا الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم به بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرضى به عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم ، فإن وعده حق وقوله صدق"[٦٢] .

وتبع المسلمون رسولهم ﷺ في التحريض على القتال ، وكان لقادتهم العسكريين مواقف صادقة وكلمات ملتهبة توقد جذوة الإيمان في القلوب ، وتثير الحماس في النفوس وترغب في الجنة والاستشهاد[٦٣] ، وهذه صورة المسلمين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في احتشادهم وتوثبهم التى نقلها عنهم عمير الجمحى حين أرسلته قريش ليحوز لهم أصحاب رسول الله ﷺ في بدر ، قال : رأيت - يا معشر قريش - البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجا إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم" (٦٤) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خامساً : وسائل أخرى :

ثمة وسائل معنوية أخرى عديدة يتطلبها إحراز النصر ، ويستلزم وجودها وعدم غيابها لدى المسلمين في جميع أحوالهم قبل مواجهتهم أعداءهم وأثناء المواجهة وبعدها .

وقد عرض القرآن الكريم لكثير من هذا الوسائل والعوامل م عة في موضع واحد منه كدستور ذى مواد يأخذ بعضها بحجز بعض ، وهى مواد الثبات وذكر الله كثيرا وطاعة القائد واتقاء التنازع والصبر واتقاء البطر والرياء ، ثم التوكل على الله ، تلك التى أوردها تعالى متتالية في قوله : "يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط" (الأنفال ٤٥-٤٧) ، "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم" (الأنفال ٤٩) .

أ) وأولى هذه الوسائل الثبات والثقة في تحقيق النصر ، والسكينة والاطمئنان إلى ذلك ، وهذه وذاك إنما يتحققان أولا بفقه الأشياء على حقيقتها وتوطين النفوس على التزود من هذا الفقه وعدم إغفال المنبهات إلى ذلك في القرآن الكريم ، أو الاكتفاء بالكلام وإهمال العمل ، والركون إلى استيراد المعارف بدل إنتاجها .

وقد وسع القرآن الكريم دائرة الفقه والمعرفة ، وحفز المسلمين إلى ذلك بما نبههم إلى أن التقصير في فقه الأشياء سبب كبير للهزيمة وافتقاد النصر ، كما خبرنا الله من أبناء اليهود والمشركين المنهزمين في بدر[٦٥] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالثبات - وهو وسيلة النجاح في كل شئ - بما يعنيه من الصبر وعدم اليأس ، والمثابرة على بذل الجهد - هو السبب الأخير للنصر والغلب بين الأفراد والجماعات "يتصارع الرجلان الجلدان فيعيا كل منهما ، وتضعف قوته ، ويتوقع في كل لحظة أن يقع صريعا ، فيخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت حتى يكون بثبات الدقيقة الأخيرة هو الظافر [٦٦] ، وكذلك يكون جلاد الجماعات المتحاربة من يثبت إلى الساعة الأخيرة يكون هو المنتصر

والثقة المطلقة في وعد الله المؤمنين بالنصر لتحفزهم حفزا إلى الفوز بهذا النصر وتذكر الوعد الإلهى الخالد بذلك[٦٧] ، وهى التى تدفع المؤمنين دفعا إلى مطاردة الموت والهجوم على المخاطر ، فماذا بعد الشهادة في سبيل الله إلا لقاؤه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، كما قال ﷺ [٦٨] ، وتلك درجة من الفدائية الجريئة لا تحلم بها أقوى الجيوش بأسا وبسالة ٠

وبهذا الثبات وتلك الثقة في الله لا ينهار المسلم أمام الكوارث ، ولا يفقد الأمل في ربه وعونه ونصره ، ولا يكف عن نداء الواجب وفداء الحق وهو يسمع بيان الله الخالد "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران ١٣٩) ، "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم" (محمد ٣٥) ، بل إن ثقة المسلم بربه ترتفع بنظره فوق الأحداث العارضة ليستخلص ما فيها من عبرة "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين" (آل عمران ١٤٠) ٠

ب) الذكر الدائم لله والاستيقان أن النصر بيده ومن عنده ، ولا يأس من تحققه مهما اشتد البأس وحمى الوطيس كما قال تعالى : "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم " (أل عمران ١٢٦) ، فمن ذكر ذلك لا تهوله قوة الأعداء مهما عظمت ، وتحقر في عينه قدراتهم وإمكاناتهم أمام قدرة صاحب القوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقدر الذى لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء ، بل "إنما أمـــره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون" (يس ٨٢) .

وذكر المسلم لله أكثر ما يكون هما وأشغل ما يكون قلبا ، وإقبالـــه عليـــه بكليته والفرار إليه بالتبرؤ من حوله وقوته إلى حول الله وقوتـــه ، كمـــا قـــال تعالى : "فاذكرونى أذكركم" (البقرة ١٥٢) - مستوجب لذكر الله إيـــاه بتيســير عسيره ، وتفريج كربه ، وتخفيف مشاقه وتهوين صعابه ، وغمره بلطفه الـــذى لا ينفك عن عباده الصادقين ، كما قال في الحديث القدســـى : "إن عبـــدى كـــل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه" [٦٩] ، أى لا يشغله ذلك الحال العســـير عن ذكرى ودعائى واستعانتى ، وكما قال ﷺ : يقول الله تعـــالى : "أنـــا مـــع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه" [٧٠] ، وذكر الله واجتماع نفـــس المؤمـــن عليه وإن كانت متوزعة عن غيره أقوى بواعث الاستهانة بالموت والإقبال على العدو لتحقيق النصر أو الشهادة .

ج) السمع والطاعة والولاء لمن تجب لهم في غير معصيـــة لله ، وتلـــك الطاعة موجبة الفلاح والسداد في القتال وغيره ، إذ إنها جماع النظام ، والنظـــام ركن من أركان الظفر الذى يكفل توحد القوى وسرعة التحرك ودقة التنفيذ .

ومن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ طاعة الإمام ، والقائد المشارك فـــي الرأى والتدبير ، فالتقاء الآراء واتفاقها بين الإمام ورعيتـــه والقـــائد وجنـــده ، ووحدة الكلمة بينهم عنصر مهم من عناصر النصر ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة التى أوجبها الله ، قال تعالى : "يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعـــوا الرســـول وأولى الأمـــر منكم" [٧١] (النساء ٥٩) ، وقال ﷺ : "من أطاعنى فقد أطـــاع الله ... ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى" [٧٢] ، وقال : "إنما الإمام جنـــة يقـــاتل من ورائه ويتقى" [٧٣] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويؤيد أن الطاعة مهمة في تحقيق النصر ما حدث من المسلمين في وقعتى بدر وأحد ، فحين نفذوا ما أمرهم به ﷺ بدقة وعناية كان النصر السريع لهم ، وحين خولفت أوامره ونسيت تعاليمه في أحد حلت بهم الهزيمة التى كادت تقضى عليهم ، قال تعالى : "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين" (آل عمران ١٥٢) .

وقد رأينا كيف أن السمع والطاعة كانتا أول ما بايع عليه الرسول ﷺ طلائع المؤمنين المجاهدين ، فعن عبادة بن الصامت وكان أحد زعماء بيعة العقبة قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره[٧٤] ؛ لأنه ليس من المفروض - بل لعله ليس من الممكن - أن يفهم كل الناس كل حكمة يستهدفها الإمام أو القائد من وراء كل تخطيط أو أمر ، وإنما تتحمل القيادة وحدها مسؤولية الخطة وتقدير أهدافها ونتائجها .

كما قد رأينا كيف قبل رسول الله ﷺ في صلح الحديبية شروطا أغضبت في ظاهرها كثيرا من المسلمين والكبار منهم الذين اعتبروها دنية في الدين ، ولم يتفهموا الأهداف البعيدة للقائد الحكيم عليه الصلاة والسلام ، حتى أجابهم في إجمال شديد وإشارة سريعة : "إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى" [٧٥] .

والذى لاشك فيه أن الطاعة المطلقة من ألزم ما يحتاج إليه جيش محارب، وفي زمن الحرب قد تتنازع الهيئات ، أو تختلف الطوائف والفئات ، أو يستأثر بالرأى أحزاب وأفراد ، فينتهى بهم هذا كله إلى الفشل وذهاب القوة ، ومن ثم كان الوجه الآخر للسمع والطاعة تجنب النزاع والاختلاف والتزام الوحدة والنظام ؛ لاستبقاء القوة والظهور على الأعداء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

د) الصبر والمثابرة ، وهذه من الوسائل التى نوه القرآن الكريم بـــها فـــي كثير من آياته كعامل من عوامل النصر والفلاح ، فيأمر المســلمين بالاســتعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن العاقبة للصابرين المتقين ، وأنهم إن صبروا واتقـــوا لا يضرهم كيد أعدائهم شيئا .

وتتوالى الآيات الكريمة مؤكدة هذه الحقيقة من أن عاقبـــة الصـــبر هـــى النصر كما قال تعالى : "ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا علـــى مـــا كذبـــوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبـــأ المرســـلين" (الأنعام ٣٤) ، وقد جاء تقرير ذلك في ســـنة رســـول الله ﷺ قـــال : "... واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا" [٧٦] .

وإذا كان الصبر من أمضى الوسائل لكل مكافح في الحياة ولكل مجتمـــع مناضل ، فإن أحوج إنسان إليه هو المقاتل وفي ميدان القتال بالذات ، ذلـــك أن للحرب والمعارك ضرورات لا تسيغها النفوس كتقييد بعض الحريـــات وتقليـــل النفقات ، والاستغناء عن كثير من الحاجات ، وكل ذلك يســـبب كثـــيرا مـــن الضيق ، والنقص في الأسلحة وآلات الحرب وإمدادات المجتمـــع والمحـــاربين وغير ذلك مما يوقع في الحرج ، ثم تفوق العدو في كل ذلك مما يدفـــع إلـــى القلق ، وهى ضرورات لابد لمن يريد النصر من أن يصبر عليها راضيا[٧٧] .

والقرآن الكريم يربط كثيرا بين الصبر وســـائر الاهتمامـــات الحياتيـــة ، والابتلاءات التى تعرض للإنسان في حياته ، ولا يكون من سبيل لتجاوز ذلـــك كله إلا الصبر الباسل ، وأنه السبيل الوحيد للنصر في كل عصر ، قال تعـــالى : "ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأمـــوال والأنفـــس والثمـــرات وبشر الصابرين" (البقرة ١٥٥) ، "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يـــأتكم مثـــل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتـــى يقـــول الرســـول والذين آمنوا معه متى نصـــر الله ألا إن نصـــر الله قريـــب" (البقـــرة ٢١٤) ، "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم" (محمد ٣١) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما كان الصبر عدة السابقين في مواجهتهم لأعدائهم وأحرص ما يدعون الله أن يزودهم به فيما يذكره القرآن الكريم عن قوم موسى وهم يتحدون فرعون : "ربنا أفرغ علينا صبرا" (الأعراف ١٢٦) ، وفيما يذكره عن قوم داود : "ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (البقرة ٢٥٠) .

ولأن الصبر من أشرف الأخلاق والمعانى التى يتوقف عليها الظفر في الحرب ؛ لما فيه من حبس النفس على ما تكره من شدائد الحرب والاستعداد لها ، وتوطينها على تحمل المكاره وما يشق عليها من شؤون الحياة بعامة - فقد أمرنا الله به وأوجبه علينا في عدة آيات[٧٨] من مثل قوله تعالى : " يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" (آل عمران ٢٠٠) ، فهذه الآية الكريمة ينبغى لكل مؤمن أن يكتبها على قلبه ويعرضها على عقله متدبرا فيها ؛ لأنها تدعونا إلى وسائل الفوز والنجاح ، والنصر والفلاح من الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله .

أما الصبر فهو عدة الحياة الغاصة بالصعاب والمشاق والكدح والجهاد ، وشأن الأفراد والأمم إذ افتقدت الصبر - مع هذه الحياة - عجزت عن مواصلة السير ، وإذا اعتصمت بالصبر قويت على احتمال الصدمات والملمات دون أن تضطرب أو يفلت منها الزمام ، وهذا سر اعتناء القرآن الكريم به وإكثاره من حث المؤمنين عليه[٧٩] .

وإذ تقرن الآية الكريمة بالصبر المصابرة ، فإنما لتشير إلى أن المقصود به الصبر الإيجابى والمجاهدة ، وليس الاستسلام المستكين الذى هو من حيلة العجزة وجهد المقلين ، بل هو الصبر الذى يبذل فيه المؤمنون كل طاقاتهم ، ويسخرون فيه كل إمكاناتهم وقدراتهم ، مع احتفاظهم برباطة جأشهم ، والثقة بحسن عاقبتهم حتى يكون صبرهم في الكفاح أقوى وأعمق من صبر أعدائهم ، ولئن كانوا يألمون فإن أعداءهم كذلك يألمون ، لكنهم برجائهم من الله ما لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرجوه إعداؤهم يكونون أولى بهذا الصبر وأجدر بالمصابرة ، ومن ثم يكونون أولى بنصر الله كما قال تعالى : "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" (العنكبوت ٦٩) .

هـ) التوكل على الله والحذر من الاتكال على غيره ، وهذا التوكل الحق على الله إنما يكون مع الأخذ بكل الأسباب الموصلة إلى المطلوب ، والاعتماد بعد ذلك على رب الأرباب في تفعيلها ، وجبر ما فاتنا الأخذ به منها بحوله وقوته[٨٠] ، فإذا فعل المؤمن ذلك تحقق له مبتغاه ، ومن وكل أمره إلى الله وأيقن أنه ناصره ومعينه وأنه لا يعجزه شئ يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم عتادهم .

وليس المقصود بالتوكل ترك السعى والعمل وتفويض الأمر إلى الله ، فما بهذا أمر الدين ، ولا جاءت تعاليم رب العالمين ، بل إن هذا معنى زائف لحقيقة التوكل وعقيدة القدر يتوكأ عليه أعداء المسلمين لإشاعة التواكل والاستسلام بينهم ، بينما هو في حقيقته البريئة وصورته الصحيحة أخطر سلاح في صناعة الأبطال ، إن التوكل على الله والإيمان بما قدره لا يعفى المؤمن بعامة والمقاتل بخاصة من سائر الواجبات عليه ، وبذل غاية الجهد ومنتهى الطاقة كأحسن ما يكون أداء الواجب واستفراغ الجهد والطاقة ، ورسول الله ﷺ لم يسمح بأى تهاون أو تواكل أو غفلة لا في مجالات الحياة بعامة ولا في ميدان القتال بخاصة ، لكن بعد أن يستنفد المقاتل كل طاقاته ، وآخر حيلته وذكائه - تبقى الثقة بالله والتوكل عليه والإيمان بقدره سلاحا رهيبا أمضى من كل سلاح[٨١] .

"وخطورة هذا العامل من عوامل النصر ووسائله ترجع إلى أنه روح العوامل والوسائل كلها ، فهو الباعث لكل منها وهو النتيجة أيضا لكل منها ، وإذا كان التوكل كما علمنا يعنى الاستعداد التام قبل المعركة ، والاطمئنان التام للنصر والثقة بوعد الله - فلن يحرم النصر جيش أحسن الاستعداد للحرب ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وامتلأ ثقة بنصر الله ، فكيف إذا جمع إلى هذا العامل سائر العوامل الأخرى" ؟[٨٢] .

وصورة التوكل الحق يبينها حديث الذى جاء إلى النبىﷺ ومعه ناقته وسأل قائلا : أأعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ ، فقال له النبىﷺ : اعقلها وتوكل"[٨٣] ، وقد قيل لبعضهم : إن كنت متوكلا على الله ومعتمدا عليه وواثقا بقضائه وقدره فألق بنفسك من هذا الحائط ، فإنه لا يصيبك إلا ما قدر لك ، فقال :"يا هذا ، إن الله خلق عباده ليجربهم ويمتحنهم ، لا ليجربوه ويمتحنوه" [٨٤] .

ولما كان التوكل على الله بهذا المعنى عاملا مهما في النصر فقد أمرنا الله به ، وحثنا عليه في عدة آيات منها "فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (آل عمران ١٥٩-١٦٠) ، وعندما ينعقد العزم بأخذ الأهبة ، واستكمال العدة واستفراغ الحول والقوة ، لا يكتفى بذلك ما لم يقترن به معونة الله وتوفيقه ، والتوكل عليه وحده وتفويض الأمر كله إليه ، فإن الموانع الخارجية والعوائق التى تحول دون الوصول إلى النصر والغاية لا يحيط بها إلا علام الغيوب .

ويقابل التوكل بهذا المعنى اتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها ، حتى إذا أدركهم العجز خانهم الصبر ، وأدركهم اليأس حين حلول البأس ، واتكال ذوى الأوهام الذين يتعلقون بالأمانى والأحلام ، حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم نكصوا على أعقابهم ، وكفروا بوعد ربهم نصر المؤمنين ، وهو إنما وعد أولياءه لا أولياء الشيطان وذوى الأوهام ، فقد يحسن المؤمنون الاستعداد للحرب فيشعرون بأنهم أهل لأن ينصروا بقوتهم ، ويحملهم هذا الشعور على الاستعلاء والفخر فيفوتهم في هذه الحال النصر ، لأن قانونه يهيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهم في قوة ألا يكونوا كغيرهم ممن يقاتلون استعلاء وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية[٨٥] .

ولهذا كله يحذرنا الله من إساءة فهم التوكل عليه ، والاغترار بغيره والاعتماد عليه ، وينبهنا إلى ضرورة التجرد من عوامل الهزيمة وإحباط الأعمال من البطر والرياء والعجب والفخار ، ومكايد الشيطان ووساوسه ، فقال تعالى : "ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط" (الأنفال ٤٧) ، وقال : "وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لاترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب" (الأنفال ٤٨) ، "ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين" (التوبة ٢٥) ، وما أجمل قولة خالد لقادة جيش المسلمين في يوم اليرموك : "هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده" [٨٦] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

وبعد ، فقد كانت هذه أهم وسائل النصر وأسبابه المعنوية فيما انتهى إليه البحث من تتبعها في آيات القرآن الكريم - تصريحا أو استنباطا - وما هدى القرآن الكريم إليه من ضرورة توفرها وإعدادها قبل ملاقاة الأعداء ومدافعتهم جنبا إلى جنب مع وسائل النصر وأسبابه المادية الأخرى التى عرضنا لها في مبحث سابق ، وبتحصيلهما معا يستكمل المسلمون شروط النصر ومقوماته في إعدادهم وتحضيرهم لملاقاة الأعداء ومدافعتهم التى تستلزم بالضرورة - مع اصطحاب هذين النوعين من الوسائل المادية والمعنوية - تكيفا خاصا وإدارة منظمة ووسائل فنية أخرى يرشدنا القرآن الكريم إلى كثير من قواعدها وتسييرها كالكر والفر والإقدام والمباغتة والتقسيم والتنسيق والتحيز والتحرف والثبات والتماسك وغير ذلك مما يعرفه العارفون بهذا الشأن والخبراء في فنونه وهو ما نعرض له - إن شاء الله - في المبحث الأخير من هذه البحوث في وسائل النصر وأسبابه في هدى القرآن الكريم .

والله من وراء القصد ، وما التوفيق إلا بالله ،،

أ.د. محمد إبراهيم شريف

٢٠٠٢/٨/١١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوامش

---

(١)انظر : الإسلام الممتحن - محمد الحسنى ص ١٨٢-١٨٣ .

(٢)من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى - محمد الغزالى ص ٣٨-٣٩ .

(٣)شبهات حول الإسلام - محمد قطب ص ٢١٥ .

(٤)شبهات حول الإسلام - محمد قطب ص ١٩-٢٠ .

(٥)راجع : ادب الدنيا والدين - أبو الحسن الماوردى ص ١٣٧ .

(٦)حصاد الغرور - محمد الغزالى ص ٤ .

(٧)حصاد الغرور - محمد الغزالى ص٦٧، ٦٩ .

(٨)من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى - محمد الغزالى ص ١٧٠-١٧١ .

(٩)راقب العالم باهتمام - حين رضى المسلمون بالتسليم لأعدائهم في مدريد عام ١٩٩١ - كيف بدا أكثر الحريصين منهم على الوفاء لمهمته في أخطر قضايا المسلمين في موقف لم يعرفيه دين الله اهتماما ، بل لقد فاخر الناس بذلك في معرض التدليل على عدم اضطهاد بلده لذوى الملل المختلفة ، وقرأ على الناس تقريرا يؤكد علمانية هذا البلد ، حرصا منه على مشاعر أعدائه الذين لم يأبه زعيمهم بهذا الحرص ، وصدق الله العظيم "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" (البقرة ١٢٠) ، وليت المسلمين يتعلمون أو يصدقون ربهم فيما يخبر عن أعدائهم ، ولايهنون لهم ويخزون المرة بعد المرة ، وكلما مدوا لهم يدا قطعوا لهم عشرا ، كما شاهدنا من قريب ردهم بالحرب على اليد الممدودة بالسلام (أقصد الاستسلام) ، ولكن

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

انظر : من هدى القرآن الكريم في علاقة المسلمين بغيرهم - محمد شريف ص ١٨٠ .

(١٠) حصاد الغرور - محمد الغزالى ص ٢٣ .

(١١) أين الخلل ؟ يوسف القرضاوى ص ١٩-٢٠ .

(١٢) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن ، والديلمى في مسند الفردوس عن أنس بن مالك ، راجع : مصنف ابن أبى شيبة في الأحاديث والآثار - كتاب الإيمان والرؤيا ٢٢/١١ ، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير - السيوطى ١٣٤/٢ .

(١٣) حدد القرآن الكريم في أكثر من موضع مقتضيات الإيمان الحق ودستوره في صورة مجملة تارة ومفصلة تارة أخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : "إنما المؤمنون الذين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا" (الأنفال ٢-٤) ، "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون" (الحجرات ١٥) ، وانظر الآيات : (الإسراء ٢٣-٣٩) ، (المؤمنون ١-١١) ، (الفرقان ٦٣-٧٦) .

(١٤) ومن هذه الثقة في وعد الله بالنصر والإيمان به ما قاله خالد بن الوليد لأهل قنسرين حينما ذهب لفتحها فتحصنوا منه : "إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا" ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد ، ومن ذلك قول الهرمزان لعمر بن الخطاب : "إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا" ، انظر : البداية والنهاية - ابن كثير ٥٢/٧ ، ٨٧ .

(١٥) أخرج أبو داود عن ثوبان قال : قال ﷺ : " يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ ، قال : "بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ ، قال : "حب الدنيا وكراهية الموت" .

راجع : سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب في تداعى الأمم على الإسلام ١١١/٤ .

(١٦) تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت ص ١٥٦ .

(١٧) المنهزمون - دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة - يوسف العظم ص ٣٠٠-٣٠١ .

(١٨) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر في كتاب الفتن من طرق عدة ، وفي الباب مثله عن أبي هريرة ، راجع : صحيح مسلم بشرح النووي ٤٤/١٨ .

(١٩) المنهزمون - دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة - يوسف العظم ص ٢٥٩ .

(٢٠) أخرجه مسلم عن ابن مسعود في كتاب الإيمان - باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الصحيح بشرح النووي ٢٧/٢ ، وفي معناه ما أخرجه أبو داود وأحمد عن ابن عمر - يرفعه .. إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" راجع : السنن - كتاب البيوع - باب النهي عن بيع العينة ٢٧٤/٣ ، الفتح الرباني ٢٦/١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٢٠م) تاريخ الأمم والملوك - الطبرى ٣٤٢/٢ .

(٢١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم - البوطى ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢٢) انظر : أسباب النزول - الواحدى ص ٣٤٢ ، وراجع : المستدرك للحاكم النيسابورى ٤٠١/٢ ، الدرر المنثور للسيوطى ٥٥/٥ .

(٢٣) انظر : أسباب النزول - الواحدى ص ٣٤١ ، وراجع : معالم التنزيل للبغوى ٧٠/٥-٧١ .

(٢٤) سيرة النبى ﷺ - ابن هشام ٤٣٠/٣ .

(٢٥) الدعوة إلى الإسلام - المستشرق آرنولد ص ١٥ .

(٢٦) حصاد الغرور - محمد الغزالى ص ٢١٣ .

(٢٧) حصاد الغرور - محمد الغزالى ص ٩٤ .

(٢٨) التقوى من الوقاية ، والاتقاء الحيلولة بين شيئين وحجز أحدهما عن الآخر ، وتقوى الله - كما هى في وجوه القرآن - مزيج من خشية الله وخوفه ، والرغبة فيه والرهبة منه ، والعبادة لله وإخلاصها له وتوحيده ، ولا يتحقق ذلك إلا بطاعته فيما أمر به ، وعدم عصيانه فيما نهى عنه ، كأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزا وحائلا بينه وبين عقاب الله وخذلانه إياه ، راجع : الأشباه والنظائر - مقاتل بن سليمان ص ١٦٥ ، وانظر : المفردات - الراغب الأصفهانى ص ٨٣٣ .

(٢٩) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن ثابت ، راجع : الفتح الربانى ٣١٢/١٩ ، وانظر : سنن الترمذى في أبواب صفة القيامة - عن أنس بن مالك ٥٧/٤ .

(٣٠) البداية والنهاية - ابن كثير ١٥/٧ .

(٣١) مجلة الأزهر - جمادى الأولى ١٣٧٦هـ .

(٣٢) السابق - نفس العدد .

(٣٣) راجع : البداية والنهاية - ابن كثير ٣١٨/٦ .

(٣٤) راجع : تاريخ الأمم والملوك - الطبرى ٣٨٢/٢ ، ٣٨٧ ، البداية والنهاية - ابن كثير ٣٥/٧ .

(٣٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ باب حسن الخلق عن أبى هريرة وغيره ، الموطأ ص ٥٦٤ .

(٣٦) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى - محمد الغزالى ص ١٨٩ .

(٣٧) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى - محمد الغزالى ص ١٩١-١٩٢ .

(٣٨) الجهاد في الإسلام - كيف نفهمه وكيف نمارسه - البوطى ص ٢٤٣-٢٤٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣٩) أخرجه الإمام أحمد عن أنس ومثله عن عمار بن ياسر ، الفتح الربانى ٢٠٣/٢٢ .

(٤٠) لا يخفى ما في ذلك الوعد المشروط من التحريض والحث على الجهاد بعد بيانه في الآيات السابقة " والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم - سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم" (محمد ٤-٦) ما على القتال في سبيل الله من الأجر والثواب ليزداد من المسلمين الإقبال والإقدام ، انظر : التفسير الكبير - الفخر الرازى ٥١١/٧ .

(٤١) انظر : الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ٢٣٢/١٦ ، فتح القدير - الشوكانى ٣١/٥ ، روح المعانى - الشهاب الألوسى ٤٣/٢٦ .

(٤٢) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٥١١/٧ .

(٤٣) التفسير الكبير ٥١١/٧ .

(٤٤) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٢٨٨/٦ .

(٤٥) المفردات - الراغب الأصفهانى ص ٧٥٤ .

(٤٦) أخرجه البخارى عن أبى موسى في كتاب الجهاد - باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، الصحيح ٢٠٦/٣ .

(٤٧) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٢٨٨/٦ .

(٤٨) انظر : الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ٢٣٢/١٦ ، فتح القدير - الشوكانى ٣١/٥ .

(٤٩) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٢٨٨/٦ .

(٥٠) يشبه هذا إنفاذ أمر الله في أعدائه ، وتحقيق ما يريده بهم من العذاب والتدمير من خلال فعل أوليائه المؤمنين ، وهو معنى قوله تعالى : "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين" (التوبة ١٤) .

(٥١) من يقارن بين حال المسلمين في حرب العاشر من رمضان الأخيرة والحروب السابقة عليها يدرك ما نشير إليه جيدا .

(٥٢) نقول : حين يصح وفاء المؤمنين بشرطهم ؛ لأنا نشاهد أن القائمين على أمور كثير منهم لا يوفون بهذا الشرط من نصرة الله ودينه ، ولا يكنون له من الولاء والمشاعر مايكنه غيرهم لأديانهم ، راجع ص ٩ من هذا البحث .

(٥٣) تأمل في هذا المعنى وقريبا منه قوله تعالى : "... ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما" (الفتح ٢٥) .

(٥٤) انظر : في ظلال القرآن ٢٤٢٦/٤-٢٤٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٥٥) يفسر الفقه هنا بأنه العلم بحقائق الحرب المادية والمعنوية ، وهو سبب للنصر جامع لسائر الأسباب ، والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم بعامة ، راجع : تفسير القرآن الحكيم - رشيد رضا ١٠-٨٩ .

(٥٦) أحد الثلاثة الذين خلفوا عن اتباع الرسول ﷺ في غزوة العسرة تراخيا وكسلا بغير سوء نية أو تعمد فرار ، ولم يعفهم ﷺ من نبذ المجتمع إياهم حتى تاب الله عليهم وعفا عنهم .

(٥٧) وهكذا تكون التعبئة والاحتشاد ، راجع : صحيح البخارى ١٣١/٥ .

(٥٨) أخرج البخارى عن مجاشع وأخيه أنهما بايعا على الإسلام والجهاد - كتاب الجهاد - باب البيعة في الحرب ، الصحيح ٩/٤ .

(٥٩) أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الإيمان - باب من قال إن الإيمان هو العمل ، الصحيح ١٢/١ .

(٦٠) أخرجه البخارى عن ابن عباس في كتاب الجهاد - باب وجوب النفير ٢١٠/٣ .

(٦١) يسمى العسكريون - حديثا - هذا الأمر بالشدة العسكرية أو نوبة الطوارئ .

(٦٢) راجع : خطب النبى ﷺ - محمد خليل الخطيب ص ١٢-١٣ .

(٦٣) راجع ما جاء من ذلك في : البداية والنهاية - ابن كثير ٧/٧-١٠ ، ٢٩ .

(٦٤) راجع : سيرة النبى ﷺ - ابن هشام ٢٦٢/٢ .

(٦٥) راجع قوله تعالى : "لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون" (الحشر ١٣) "وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" (الأنفال ٦٥) .

(٦٦) تفسير القرآن الحكيم - رشيد رضا ٢٤/١٠ .

(٦٧) قال تعالى في هذا الوعد : "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفي بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" (التوبة ١١١) .

(٦٨) أخرجه النسائى عن عبادة بن الصامت وغيره في كتاب الجنائز ، راجع : صحيح سنن النسائى ٣٩٥/٢-٣٩٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٦٩) أخرجه الترمذى عن عمارة بن زعكرة في باب الدعوات ، راجع : سنن الترمذى ٥/٢٣٠ .

(٧٠) أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب التوحيد - باب قول الله : لا تحرك به لسانك ، الصحيح ٨/٢٠٨ .

(٧١) جدير بالتنبيه هذا التخصيص "منكم" حتى لا تكون طاعة لعدو مغتصب أو محتل طارئ أو متسلط طاغ ، وتلك أولى خصائص الطاعة الرشيدة ، انظر : الجهاد الإسلامى - أحمد غنيم ص ١٢٧ .

(٧٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الجهاد وكتاب الأحكام ، الصحيح ٤/٨ ، ٨/١٠٤ .

(٧٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الجهاد - باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ، الصحيح ٤/٨ .

(٧٤) أخرجه البخارى في كتاب الأحكام - باب كيف يبايع الإمام الناس ٨/١٢٢ ، والإمام مالك في كتاب الجهاد ، الموطأ ص ٢٧٦ .

(٧٥) راجع وقائع معاهدة الحديبية في سيرة النبى ﷺ - ابن هشام٣/٣٦٥-٣٦٨ .

(٧٦) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس ، راجع : الفتح الربانى ١/١٢٦ ، تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ابن الديبغ الشيبانى ٤/٣٦٤ .

(٧٧) انظر : سورة الأنفال - عرض وتفسير - د/ مصطفى زيد ص ٥٣ .

(٧٨) بل جعله ﷺ نصف الإيمان والشكر نصفه الآخر في الحديث : عجبا لأمر المؤمن ... إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" ، أخرجه مسلم عن صهيب في كتاب الزهد ، الصحيح بشرح النووى ١٨/١٢٥ ، وفي حديث لابن مسعود يرفعه "الصبر نصف الإيمان" أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والخطيب في تاريخه راجع : إحياء علوم الدين - الغزالى ٣/٤٢٠ .

(٧٩) انظر : تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت ص ١٥٧ .

(٨٠) لاحظ هذا المعنى في قوله تعالى : "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" ا(الأنفال ١٧) .

(٨١) الجهاد الإسلامى - أحمد غنيم ص ١٢٣ .

(٨٢) سورة الأنفال - عرض وتفسير . د/ مصطفى زيد ص ٥٣ .

(٨٣) أخرجه الترمذى عن أنس في كتاب صفة القيامة ، السنن ٤/٧٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٨٤) الفروق - القرافى ٢٧٣/٤ .

(٨٥) سورة الأنفال - عرض وتفسير - د/ مصطفى زيد ص ٥٣ ، ١٥٠ .

(٨٦) البداية والنهاية - ابن كثير ٧/٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثبت بمراجع البحث

١-إحياء علوم الدين - أبو حامد محمد بن محمد الغزالى دار الشعب بالقاهرة - دت ٠

٢-أدب الدنيا والدين - أبو الحسن على بن محمد الماوردى - تحقيق مصطفى السقا - طبع المكتبة الثقافية ببيروت ١٩٥٥م -

٣-أسباب نزول القرآن - أبو الحسن على بن أحمد الواحدى - تحقيق السيد أحمد صقر - طبع دار القبلة بالمملكة العربية السعودية ١٩٨٤م ٠

٤-الإسلام الممتحن - محمد الحسنى - طبع المختار الإسلامى بالقاهرة ١٩٧٧م ٠

٥-الأشباه والنظائر في القرآن الكريم - مقاتل بن سليمان البلخى - تحقيق عبد الله شحاته طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٥م ٠

٦-أين الخلل ؟ - يوسف القرضاوى - الطبعة السابعة - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣م ٠

٧-البداية والنهاية - عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى - طبع مكتبة المعارف - بيروت ١٩٩٠م ٠

٨-تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى - الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٩٨٨م ٠

٩-التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) فخر الدين محمد بن عمر الرازى - طبع دار الفكر بيروت ١٩٧٨م ٠

١٠- تفسير القرآن الحكيم (المنار) - رشيد رضا - طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٣م ٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١- تفسير القرآن الكريم - محمود شلتوت - طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٤م ٠

١٢- تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول - عبد الرحمن ابن على المعروف بابن الديبغ الشيبانى الشافعى - طبع مؤسسة الحلبى بالقاهرة ١٩٦٨م ٠

١٣- الجامع الصغير - جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - طبع دار الكتب العلمية ببيروت د٠ت ٠

١٤- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى - طبع دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٧م ٠

١٥- الجهاد الإسلامى - دراسة علمية - أحمد غنيم - طبع دار الإنسان بالقاهرة ١٩٧٥م ٠

١٦- الجهاد في الإسلام - كيف نفهمه ، وكيف نمارسه - محمد سعيد البوطى - طبع دار الفكر بدمشق ١٩٩٩م ٠

١٧- حصاد الغرور - محمد الغزالى - طبع مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٧م ٠

١٨- خطب النبى ﷺ - جمع محمد خليل الخطيب - طبع دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٣م ٠

١٩- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - شهاب الدين السيد محمود شكرى الألوسى - طبع دار إحياء التراث د٠ت ٠

٢٠- سنن أبى داود - سليمان بن الأشعث السجستانى - طبع دار الفكر للطباعة والنشر د٠ت ٠

٢١- سنن الترمذى (الجامع الصحيح) - أبو عيس محمد بن عيسى الترمذى - طبع دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٠م ٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٢- سورة الأنفال - عرض وتفسير - مصطفى زيد - الطبعة الرابعة - دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٧٠م ٠

٢٣- سيرة النبى ﷺ - أبو محمد عبد الملك بن هشام - طبع إدارات البحوث العلمية بالرياض د٠ت ٠

٢٤- شبهات حول الإسلام - محمد قطب - طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٨١م ٠

٢٥- صحيح البخارى - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفى - طبع استامبول تركيا ١٩٨١م ٠

٢٦- صحيح سنن النسائى - أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى - طبع مكتب التربية العربى ١٩٨٨م ٠

٢٧- صحيح مسلم بشرح النووى - مسلم بن الحجاج ، أبو زكريا يحيى بن شرف - طبع دار إحياء التراث العربى ببيروت د٠ت ٠

٢٨- الفتح الربانى في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى - أحمد عبد الرحمن البنا طبع دار الشهاب بالقاهرة د٠ت ٠

٢٩- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن على الشوكانى - طبع دار الفكر ببيروت ١٩٨٣م ٠

٣٠- الفروق - شهاب الدين أبو العباس الصنهاجى المشهور بالقرافى - طبع دار المعرفة ببيروت د٠ت ٠

٣١- في ظلال القرآن - سيد قطب - طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٥م ٠

٣٢- المصنف - أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة - تحقيق مختار الندوى - طبع الدار السلفية بالهند ١٩٨١م ٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٣- معالم التنزيل - الحسين بن مسعود البغوى الفراء - تحقيق خالد العك ومروان سوار طبع دار المعرفة بيروت ١٩٨٧م ٠

٣٤- المفردات في غريب القرآن - الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى - نشر محمد أحمد خلف الله د٠ت ،

٣٥- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى الحديث - محمد الغزالى - الطبعة الثانية - دار الاعتصام بالقاهرة د٠ت ٠

٣٦- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم - محمد سعيد البوطى - طبع دار الفكر المعاصر بيروت ١٩٩٨م ٠

٣٧- من هدى القرآن الكريم في علاقات المسلمين بغيرهم - محمد شويف - طبع الثقافة العربية ١٩٩٩م ٠

٣٨- المنهزمون - دراسة للفكر المتخلف - يوسف العظم - الطبعة الرابعة - دار القلم بدمشق ١٩٨١م ٠

٣٩- الموطأ - إمام دار الهجرة مالك بن أنس - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - طبع الشعب بالقاهرة د٠ت ٠

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner